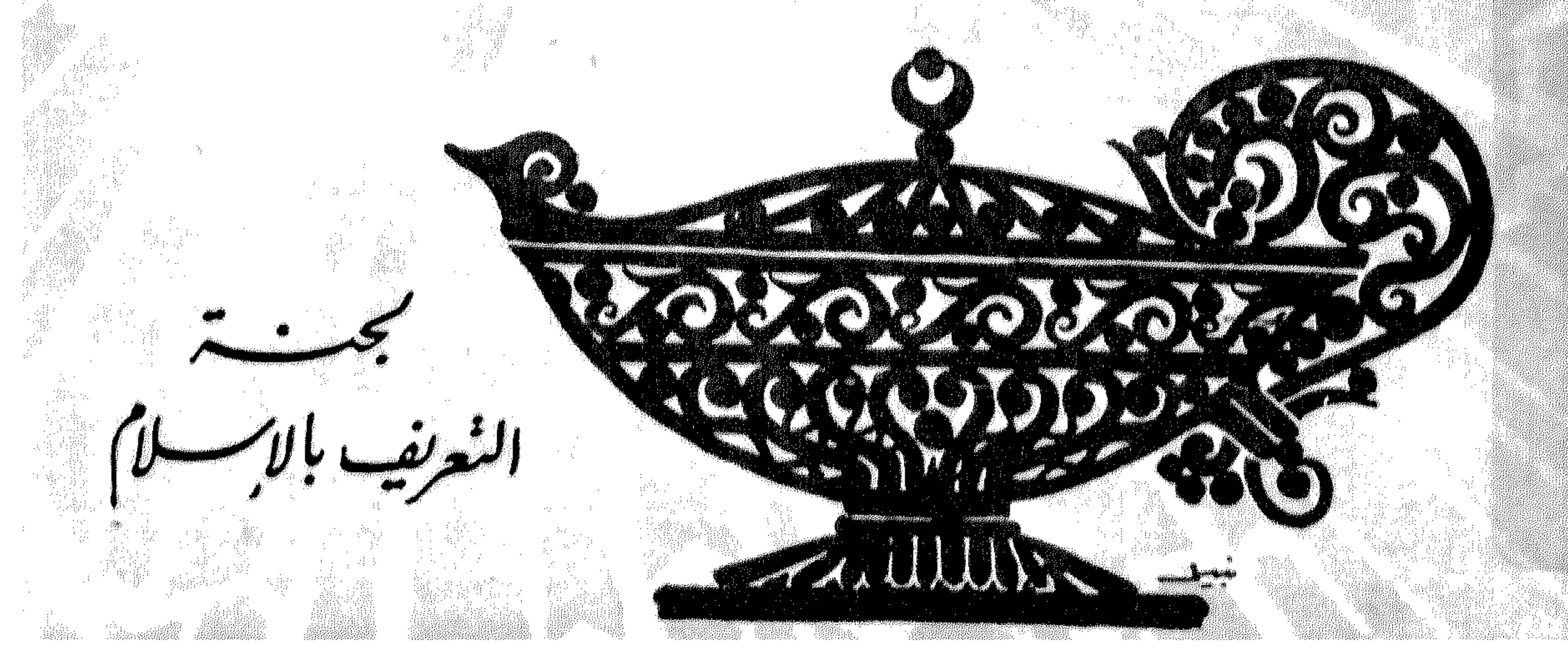
الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الإسلام دين العلم والمدنية

للإمام محمد عبده
عرض وتحقيق وتعليق
طاهر الطناحي



لجنة
التعريف بالإسلام

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمد دياب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

التعريف بالاسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية
بالقاهرة

الأسلام دين العلم والمدنية

للامام محمد عبده

عرض وتحقيق وتعليق
طاهر الطناحي

الكتاب التاسع
١٣٨٤ – ١٩٦٤

يشرف على اصدارها
محمد توفيق عويضة

مقدمة

بقلم الأستاذ طاهر الطناحي

فى مارس سنة ١٩٥٩ قدمت الى القراء ، أول كتاب من هذه المجموعة لتراث الشيخ محمد عبده بعنوان « دروس من القرآن الكريم » اشتملت على ترجمة الأستاذ الامام وتفسير « سورة الفاتحة » و « سورة العصر » وخمس آيات من القرآن الكريم تناولت : « العلم والتعليم » و « الخير والشر » و « مسألة الغرانيق » و « زينب وزيد » و « سنن الله فى الأمم » .

وقد اعتزمت السير فى نشر هذه المجموعة كتابا كتابا بطريقة جديدة تمتاز بتفصيل جهاد الامام فى الوطنية والسياسة والدين ، والاصلاح الاجتماعى ، وخدماته فى العلم والتعليم ، وما قام به من دفاع عن الاسلام ، وما رآه من آراء سديدة فى طائفة من المسائل العامة التى تهم أبناء الشرق العربى والاسلامى ، وما أذاعه من فتوى فى الدين لمن سأله فى ذلك من أبناء الأقطار الاسلامية ، وما وضعه من مذكرات ، وما ألقاه من دروس . وما كتبه فى مختلف الموضوعات والرسائل فى الصحف ، أو الى أستاذه جمال الدين الأفغانى ، وزملائه وأصدقائه الكبار .

عرض وتحقيق جديد

ولما كان هذا التراث النفيس قد مضى عليه نحو ثمانين عاما منذ بدأ ، رحمه الله ، جهاده فى الميدان العام ، وقد توزع فى أطواء الزمن بين حياته وهو تلميذ ، وحياته فى رياسة الوقائع المصرية ، واشتراكه فى الثورة العرابية ، وجهاده فى المنفى ببيروت وباريس ، ثم فى مصر الى أن توفى ،

فقد رأيت أنه يحتاج الى دراسة جديدة ، واخراج جديد ، والى عناية خاصة بتنظيمه وتحقيقه والتعليق عليه تعليقا علميا واجتماعيا وتاريخيا بما يحتاج اليه جيل هذه الأيام الذى لم يشهد أبناؤه هذا الامام العظيم ، ولم يدرسوه دراسة وافية ، ولم يظهر عنه من المؤلفات الا القليل ، وقد جمعت طائفة من أعماله جمعا مجملا لا يكفى لبيان هذا الجهاد الطويل وهذا المجهود الضخم الذى قام به الامام العظيم ، بل الزعيم الكريم فى مختلف ميادين الجهاد ، وما خلفه من مدرسة أخرجت طائفة من الزعماء والأعلام فى الدين وفى الوطنية والسياسة والاجتماع .

واذا كان المرحوم العلامة السيد رشيد رضا قد قام فى حياة الامام وبعد وفاته بتسجيل آثاره وأعماله على نحو ما يحتاج اليه الجيل الماضى ، وأدى واجبه فى ذلك بقدر ما استطاع .. فان تطور العصر ، واختلاف حياة الجيل الحاضر وأسلوب تعليمه وتفكيره عما سبقه من أجيال ، يبعثان على اعادة النظر فى هذا التراث بما يستحق ، وتقديمه بما يلائم هذا الأسلوب بطريقة جديدة واضحة ، وبعناية دقيقة فى التحقيق والتعليق ، وبتقسيمه على كتب توضح أنواع هذا الجهاد المتعددة التى أفنى فيها الامام حياته ، وقدمها قربانا للوطنية والاسلام واصلاح المسلمين .

الاسلام دين العلم والمدنية

وهذا الكتاب الذى نقدمه اليوم بعنوان « الاسلام دين العلم والمدنية » هو الكتاب الثانى من هذه المجموعة القيمة ، التى لا ريب فى أن كل كتاب منها سيكون ذخيرة نفيسة . وهو يشتمل على طائفة من البحوث المختلفة بالدين الاسلامى وموقفه من المدنية الحديثة ، وبيان المعانى الانسانية والأهداف الاجتماعية والعمرانية فى هذا الدين الحنيف وما يتفق مع الدين المسيحى من مثل عليا ، وما يختلف معه من معاملات بشرية لا تمس جوهر التوحيد وعبادة الله سبحانه وتعالى ، كما يشتمل

على دفاع الأستاذ الامام عن الاسلام فى المزاعم التى ألصقها البعض به جهلا أو خطأ فى البحث والرأى والتقـدير كمزاعم مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى عهده الذى أراد أن يخلط السياسة بالدين ، فقد كتب مقالين عن الاسلام والمسلمين أملاهما عليه الغرض ، ودفعه اليهما تشويه الحقائق خدمة للسياسة الفرنسية وللنفوذ الفرنسى الذى يريد أن يسيطر على البلاد الاسلامية وخاصة فى مستعمرات شمال أفريقية فى ذلك الحين.

جمعية التقريب بين الاسلام والمسيحية

ولقد كان جهاد الأستاذ الامام فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن فى سـبيل الاسلام واصـلاح المسلمين حافزا للكتابة والخطابة والحديث عن شـئون هذا الدين وعلاقته بالدين المسيحى ، خصوصا أن بين العرب والمسلمين فى الأقطار الاسلامية والعربية عددا غـير قليل من المسيحيين الذين يعيشـون فى وئام تام مع اخوانهم المسلمين فى هذه الأقطار ، مما دفع بعض كبراء المسلمين والمسيحيين للدعوة الى التقريب بين الدين الاسلامى والدين المسيحى . وقد عقد الأستاذ الامام اجتماعا فى بيروت بعد عودته من باريس وتعطيل جريدة « العروة الوثقى » دعا اليه بير زاده ، و « عارف أبى تراب » تابع السـيد جمال الدين الأفغانى ، وجمال بك نجل رامز بك التركى قاضى بيروت وميرزا باقر ، وطائفة من أصدقائه المسيحيين والمسلمين ، وقد ألفوا جمعية سياسية دينية سرية باسم « جمعية التقريب بين الأديان السماوية » تعمل لازالة الشقاق بين أهلها ، والتعاون على محو الاسـتعمار من الشرق ، وتعـريف الافرنج بحقيقة الاسلام من أقرب الطرق ، وقد انضم الى هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء ايران ، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية فى الآستانة وبعض الانجليز . وكان من أعضائها من رجال الدين فى لنـدن « القس اسحاق تيلر » بل كان هو من دعاتها فى انجلترا . كما انضم اليها « مستر جى

دبليو لينتز » مفتش المدارس بالهند ، وكان الأستاذ الامام رئيسها وصاحب الرأى الأول فى موضوعها ونظامها ، وكان ميرزا باقر هو الأمين العام لهذه الجمعية .

انجليزيان
يدعوان لتوحيد الاسلام والمسيحية

وقد كتب مستر جى دبليو لينتز ، فى ذلك الحين مقالا بجريدة « الديلى تلغراف » بعدد ٢ فبراير سنة ١٨٨٨ م ، بعنوان : « الاسلام والمدارس المحمدية » ذكر فى أوله أنه أتيح له تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم فى مكتب اسلامى بالآستانة قبل حرب القرم ، وأنه فتش مئات المدارس المحمدية فى الهند ، ووصلت اليه ألوف من الأخبار عن مدارس أخرى ، وهو بذلك يشهد بأن ما أشيع فى أوربا عن المكاتب الاسلامية أنها « مغارات اثم » وبهتان لا يصح أن يقبله عاقل أبدا ، فان الاجتماعات العائلية والعلمية والرسائل الدينية والأخلاقية التى أوجب المسلمون على التلاميذ قراءتها سياج أمين للمحافظة بينهم على الأخلاق والآداب . وذم المدارس التى أنشأتها الدولة الانجليزية فى الهند وتقصيرها فى تعليم الدين الاسلامى . ثم قال :

« أما السؤال الأوسع فى الفرق بين المسيحية والاسلام ، وكونهما أداة لنشر التمدن ، فانى أقول فى صراحة : ان من لا يعرف اللسان العربى لا يستطيع أن يعرف أن أصول الدين الاسلامى أشد وأقوى ارتباطا بقلوب المسلمين فى معيشتهم اليومية مما هو ، لسوء الحظ ، للمسيحية فى قلوب المسيحيين ، واذا كان الأمر كذلك ، فلا حجة عندنا ونحن نعاشر المسلمين بأن نترك التقريب بين الدينين ، ونأخذ بما يفرق بين الأمتين !

« المسلمون يعتقدون أن اليهود والنصارى هم أهل الكتاب ، أى عندهم كتاب مقدس . الولد المسلم حين خروجه من المكتب يعترف أمام

ربه ، معاهدا اياه أنه مؤمن بهذه الكتب . القرآن يأمر بصيانة المساجد والكنائس والبيع التى يذكر فيها اسم الله الواحد ، كأنها غاية جهاد المؤمن . ويسمى عيسى كلمة الله وروحه ، وولادته العجيبة ، ورجعته الحميدة مقبولتان عند المسلمين بمعنى لا يخالف العقائد المعتمدة عند المسيحيين .. » .

ثم قال فى النهاية : « وانى لا أشك فى أنه يجب الاتحاد بين الاسلام والمسيحية لا من الوجهة الدينية فقط ، بل من وجهة السياسة أيضا ! »

أما القس اسحق تيلر ، فقد كتب عدة مقالات فى معنى التقريب بين المسيحية والاسلام فى الجرائد الانجليزية ، كما ألقى عدة خطب فى هذا الموضوع ، جاء فى احداها أن بعض رؤساء الكنائس ابتدعوا فى المسيحية موضوعات خيالية كعبادة القديسين والملائكة والشهداء مما ينافى تعاليم المسيحية ، وقد قضى الاسلام عند ظهوره على عبادة الأوثان والملائكة ، وأظهر الأحكام الأساسية للدين ، وهى توحيد الله وتعظيمه ، وأرشد الناس الى الأخوة الصحيحة والحقائق الأساسية للطبيعة البشرية . ثم تكلم عن تعدد الزوجات الذى كان فاشيا فى كثير من الأمم قبل الاسلام بغير حد ، وتنظيم الاسلام له وتخفيفه من شره ، واقامته لكل امرأة قيما شرعيا عليها ، فأنقذ البلاد الاسلامية من الفواحش الرسمية السائدة فى أوربا . وهى أعظم شناعة من تعدد الزوجات . وقال :

« ان الاسلام حرم السكر ، والقمار ، والبغاء . وهى ثلاث لعنات تهلك البلاد الأوربية والأمريكية . ويجب علينا أن نعلم أن الدين الاسلامى لا يناقض الدين المسيحى ، بل يتفق معه فى محاربة هذه الفواحش ، وفى عبادة الله الواحد . وهو صدى لايمان ابراهيم . والمسلمون يؤمنون بأن ابراهيم أعظم هداة البشر : ابراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله ، وعيسى كلمة الله ، ومحمد رسول الله . وللمسيح عيسى مقام جليل فى الأربعة » ثم قال : « الاسلام قريب جدا من المسيحية ، والمسلمون كأنهم مسيحيون ..

فتعالوا بنا نساعدهم عـلى الكمال فى دينهم . ولا نسعى عبثا لابطاله . وسنجد فى الاسلام مسـيحية ، ونجد محمدا آخذا بعضد المسيح فى دينه » .

***

وقد ظلت « جمعية التقريب بين الأديان السماوية » نشيطة فى ذلك الحين حتى بعد عودة الامام من منفاه الى مصر ، بل كان يغذيها بمقالاته فى الاسلام وحالة المسلمين ، وفى الديانة المسيحية وحالة المسيحيين ، وما يجب أن يكون عليه الفريقان من اتفاق واتحاد فى سبيل الخير العام ، ولقد كان دعاة التقـريب من الانجليز يشـوب دعوتهم بعض الأغراض السياسية لتوطيد النفوذ البريطانى فى الشرق الاسلامى ، ولكن مما لاشك فيه أنهم أفادوا فى الدعاية للاسلام وفى تخفيف حالة التوتر والتعصب التقليدى بين الفريقين ، وفى تطور أفـكار المسيحيين وتنويرها بالنسبة لتعاليم الدين المحمدى ، وما جاء به محمد من مبادىء سامية ، وسعت من رقعة المساحات الشاسعة والأقطار الكثيرة التى فتحها الاسلام ، وأقام فيها مسـاجده الى جانب الكنائس التى يعبد فيها الله ، كما يعبـد فى هذه المساجد ، والتى يقف فيها المسـيحيون أمام الله كما يقف المسلمون فى مساجدهم متوجهين اليه بقلوبهم وأرواحهم لا يعرفون الها غيره ، ولا يعبدون ربا سواه ، وهم عنده جميعا سواء .

طاهر الطناحى

الدّين والمتدينون ... الدّين وضع إلهيّ

" إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » قرآن كريم

خلق الله الانسان عالما صناعيا ، ويسر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للابداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه ، بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه ، فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وبيد وحضارة صنيعة أعماله ، أقواته من معالجة الأرض بالزراعة ، أو قيامه على الماشية ، وسرابيله وما يقيه الحر والبرد والوجى من عمل يديه نسجا أو خصفا ، وأكنانه ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره ، وجميع ما يتغنمه فيه من دواعى ترفه ونعيمه انما هى صور أعماله ومجالى أفكاره ، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط كفيه للطبيعة ، ليستجديها نفسا من حياة لشحت به عليه بل دفعته الى هاوية العدم ، وهو فى صنعه وابداعه محتاج الى أستاذ يثقفه وهاد يرشده ، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل وليقتدر أن يعمل ، فصنعته أيضا من صنعه ، فهو فى جميع شئونه الحيوية عالم صناعى كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها ، حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هو الانسان فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه .

دعه فى هذه الحالة وخذ طريقا من النظر الى أحواله النفسية ، من الادراك والتعقل والاخلاص والملكات والانفعالات الروحية ، تجده فيها أيضا عالما صناعيا ، شجاعته وجبنه ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه ، وما يشابهها من الكمالات والنقائص جميعا تابع لما يصادفه فى تربيته الأولى وما يودع فى نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم مرامى أفكاره ومناهج تعقله ومذاهب ميله ومطامح رغباته ونزوعه الى الأسرار الالهية أو ركونه الى البحث فى الخواص الطبيعية وعنايته باكتشافه الحقيقة فى كل شىء ، أو وقوفه عند بادىء الرأى فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية انما هى ودائع اختزنها لديه الآباء والأمهات والأقوام والعشائر والمخالطون ، أما هواء المولد والمربى ونوع المزاج وشلل الدماغ وتركيب البدن وسائر الغواشى الطبيعية فلا أثر لها فى الأعراض النفسية والصفات الروحانية ، الا ما يكون فى الاستعداد والقابلية ، على ضعف فى ذلك الأثر ، فان التربية وما ينطبع فى النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به وكأن لم يكن أودع فى الطبع . نعم ان أفكارا تتجدد ، ومعقولات من أخرى تتولد ، وصفات تسمو ، وهمما تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ، ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أنه ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعا ، فالانسان فى عقله وصفات روحه عالم صناعى .

***

هذا مما لا يرتاب فيه العقلاء .. ولكن هل تذكر ، مع هذا ، أن الأعمال البدنية ، انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وأن الروح هى السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لا تحتاج فيه الى تذكير لأنه مما لا يغرب عن الأذهان .. انما قبل الدخول فى موضوعنا أقول كلمة حق فى الدين ، ولا أظن منكرا يجحدها .

ان الدين وضع الهى ومعلمه والداعى اليه البشر ، تتلقاه العقول عن المبشرين والمنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحى ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين ، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ فى الأفئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات وتتمرن الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها الى ما تدبر به بدنها ، وكأنما الانسان فى نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين ، ثم ينبعث الى سائر الأعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح فى البشرة بعد الاندمال .

وبعد .. فموضوع الديانة المسيحية ، والديانة الاسلامية بحث طويل الذيل ، وانما نأتى به على اجمال ينبئك عن تفصيل .

الديانة المسيحية

ان الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة فى كل شىء ، وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية ، ومن وصايا الانجيل : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » . ومن أخباره : أن الملوك انما ولايتهم على الأجساد ، وهى فانية ، والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهى لله وحده . فمن يقف على مبانى هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الأفكار مع ملاحظة أن لكل خيال أثرا فى الارادة يتبعه حركة فى البدن على حسبه ، يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمى المنتسبين

فى عقائدهم اليه ، فهم يتسابقون فى المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد فى استيفاء لذاتها ، ويسارعون فى افتتاح الممالك والتغلب على الأقطار الشائعة ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون الحرب ، ويبدعون فى اختراع الآلات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم فى بعض ، ويصولون بها على غيرهم ، ويبالغون فى ترتيب الجيوش وتدبير سوقها فى ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم فى احكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكرى من أوسع الفنون وأصعبها ، وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها .

الديانة الاسلامية

أما الديانة الاسلامية فقد وضع أساسها على طلب الغلبة والشوكة والافتتاح والعذة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها . فالناظر فى أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحكم حكما لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة حربية فى العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها . ومن تأمل فى آية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أيقن أن من صبغ بهذا الدين ، فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها والسعى اليها بقدر الطاقة البشرية فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ، ومن لاحظ أن الشرع الاسلامى حرم المراهنة الا فى السباقة والرماية ، انكشف له مقدار رغبة الشارع فى معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها ، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات .. اذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون فى طلب لوازمها وليست لهم عناية بالبراعة فى فنون

القتال ، ولا فى اختراع الآلات . حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا لتقليـــدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها(١)ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدى أبناء الديانة الأولى قبل الثانية ؟ وكيف وجدت بندقية مرتين فى ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين ؟ وكيف أحكمت الحصون ودرعت البواخر وأخذت مغالق البحار بســـواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب ؟

لم لا يحار الحكيم وان كان نطاسيا ، لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ .. هل القرون الخالية والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين فى نفوس المستمسكين بعراهما ؟

هل نبذ كل دينه ؟

هل نبذ أهل كل دين عقائد دينهم من أجيال بعيدة ؟ .. هل اقتصر النصارى فى دينهم على الأخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيـــل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التى تتلى على منابر المســـلمين ، أو ألقى شيء منها فى أمانى معلميهم وناشرى شريعتهم عنـــدما يتربعون فى محـــافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله فى الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال أو انفلتت الأفكار من ســـلطة الدين ، أو تغاضت النفوس عن الانتعاش

---

(١) هذا وصف دقيق صحيح لما كانت عليه حالة العرب جميعا فى عصر الأستاذ الامام محمد عبده ، ولكن الآية قد تبدلت فى عهد الثورة الحاضر الـذى عنيت فيه الجمهورية العربية المتحدة خاصة ، والأمة العربية عامة باتباع الآية الكريمة : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الى جانب النهوض بالتصنيع ، ومن أهم وأعظم مظاهره مصانع الأسلحة والذخيرة . ولكن الدعوة الى التسليح ما زالت قائمة فى كل وقت لهذا الجيل ، وللأجيال القادمة ، ولكل أمة عربية واسلامية فى الشرق والغرب .

بنقشته ، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها ؟ .. ماذا عساه أن يرشد العقـول الى كشف المساتير وحـل المعميات ؟ أينسب هذا الى اختلاف الأجناس — وكثير من أبناء الملتين يرجعون الى أصـول واحدة ويتقاربون فى الأنساب الدانية — أينسب هـذا الى اختلاف الأقطار ، وكثير من القبيلين يتشـابهون فى طبائع البلدان ويتجاورون فى مواقع الأمكنة ؟ .. ألم يصدر من المسـلمين وهم فى شبيبة دينهم أعمال بهرت الأبصار وأدهشت الألباب ؟ .. ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسى السيادة فيها ، كان للمسلمين فى الحروب الصليبية آلات نارية (١) أشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها . ذكر ملكام سرجم (انجليزى) فى تاريخ الفرس أن محمود الغزنوى (٢) كان يحارب وثنيى الهند بالمدافع ، وكانت هى السبب فى انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئا منها . فأى عـون من الدهر أخذ بأيدى الملة المسيحية فقدمها الى ما لم يكن فى قواعد دينها ؟ وأية صدمة من صدماته دفعت فى صـدور المسـلمين فأخرتهم عن تعاطى الوسـائل لما هو أول مفروض فى دينهم . مقام للحيرة وموضع للعجب ، ويظن أن لابد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولكن نجمل على ما شرطنا .

ان الدين المسيحى انما امتد ظله وعمت دعوته فى الممالك الأوربية من أبناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة وعلومهم وشرائعهم الأولى ، وجاء الدين المسيحى اليهم

---

(١) الآلات النارية ، هى التى عرفت أيام العرب باسـم « النـار الاغريقية » ولا يعرفه بالضبط من هم مخترعوها . وهى أقرب ما تكون الى ما عرف أيام الحرب العالمية الثانية باسم « سلة مولوتوف » غير أن الفرق بينهما ان الاولى كانت تحمل مواد ملتهبة وتقذف بما يشبه المقلاع على العدو ، فتشتعل النيران حيث تقع . أما سلة مولوتوف فتحمل عدة قنابل تنفجر فى عدة مواضع بدلا من موضع واحد .

(٢) السلطان محمود الغزنوى من اشهر رجال التاريخ ، وكان مسلما متدينا ، فتح غزنة « أفغانسـتان » ودخل الهند غازيا ، وأدخل فيها الدين الاسلامى .

مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة فكان كالطراز على مطارفهم ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم ، ومع هذا فان صحف الانجيل الداعية للسلامة والسلم لم تكن كسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس ، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ، ثم أن الأحبار الرومانيين(١) لما أقاموا أنفسهم فى منصب التشريع وسنوا محاربة الصليب ودعوا اليها دعوة الدين التحمت آثارها فى النفوس بالعقائد الدينية وجرت منها مجرى الأصول ، ولحقها على الأثر تزعزع عقائد المسيحية فى أوربا ، وافترقوا شيعا وذهبوا مذاهب تنازع الدين فى سلطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم فى جراثيم وجودهم ضراما ، وتوسعوا فى فنون كثيرة ، وانفسح لهم مجال الفكر فيها ، وكانت براعتهم فى الفن العسكرى واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم فى سائر الفنون .

أما المسلمون فبعد أن نالوا فى نشأة دينهم ما نالوا ، وأخذوا من كل كمال حربى حظا ، وضربوا فى كل فخار عسكرى بسهم ، بل تقدموا سائر الملل فى فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة ، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه ، وخلطوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت فى الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال ، هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائيون الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ، ينسبونها الى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها فى الكتب ، وفيها السم القاتل لروح الغيرة ، وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفا فى الهمم وفتورا فى العزائم ، وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصا

---

(١) لقد عارض الأباطرة الرومان قيام الدين المسيحى فى بداية الأمر لأنهم كانوا يعتقدون أن فى هذا انتقاصا من سلطتهم الزمنية فضلا عن الدينية .

بعد حصول النقص فى التعليم والتقصـــير فى ارشاد الكافة الى أصول دينهم الحقة ، ومبانيه الثابتة التى دعا اليها النبى وأصحابه .

الا أن هذه العوارض التى غشيت الدين وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته ، وان كان حجابها كثيفا ، لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التى لم يحرمونها بالمرة تدافعا دائما وتغالبا لا ينقطع ، والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج ، وحيث أن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح فى أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة ، فلابد يوما أن يسطع ضياؤها وينقشع سحاب الأغيان ، وما دام القرآن الكريم يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل ، وامامهم الحق ، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل ، لا يعين لها وجها ، ولا يخصص لها طريقا ، فاننـــا لا نرتاب فى عــودتهم الى مثل نشأتهم ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم فى فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم وضنا بأنفسهم عن الذل .

المسألة الإسلامية
بين "هانوتو" والإمام

مقال مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا :

أصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية .

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لا تجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها الى آسيا بل أقرب فى الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع الى أفريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقابا متعاقبة ، ولكن كان لا يزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة مدينة (القسطنطينية) ومن جهة أخرى ببلدة (فاس) فى المغرب الأقصى معانقا بذلك الغرب كله .

فى تلك البقعة الأفريقية التى أصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته . جاء القديس « لويس » (١) الذى ينتمى الى أسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده بالأيالات الأفريقية الاسلامية ، عاود هذا الخاطر « نابليون الأول » فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة الاسلام التى كانت لا تنى فى متابعة الغارات على القارة الأوربية ، فأصبحت الجزائر فى أيديهم منذ ٧٠ عاما (١٨٣٠) ، وكذلك القطر التونسى منذ عشرين عاما ١٩١٢ .

---

(١) القديس لويس هو لويس التاسع ملك فرنسا المتدين ، وهو قائد الحملة الصليبية التاسعة التى هزمت فى المنصورة عام ١٢٥٠ . وأسر هذا القديس نفسه فى دار ابن لقمان .

قد وصلت طلائع قوانا الآن الى أصقاع من الصــحراء تنتهى اليها كثبانها الرملية ، فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لأنهم بعد اندفاعهم شيئا فشيئا فى الفيافى وبطن الخبوت ، وظنهم أنهم صاروا فى أمنع موئل ، شعروا بأنفسهم وقد حلق عليهم الأوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من «السنغال» أخبرتهم بأنالأوربيين امتلكوها وتقدموا منها الى « باقل » و « باماكو » و « سيجوسيكورو » وتوغلوا فى جهات أخرى حتى وصلوا الى « النيجر » وبحيرة « شاد » وان مدينة « تمبكتو » المقدسة قد سقطت فى أيديهم منذ أعوام ، وأكد لهم هذه الأخبار أيضا رسلهم الذين يخترقون أفريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهات « صــانغا » و « تجاوندره » قد وطأتها أقدام الحاملين للعلم المثلث الألوان الذين يصعدون الأنهار لتنظيم البلاد وترقية شئونها ، وان وابوراتهم « فى الأصل بابور على التحريف الشائع عند الأمم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية بالبابورات بدلا من البواخر » تشق عباب نهرى « الكونغو » و « الشارى » (١) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الأسود المسترسل خلفهما ، عندئذ كان يطرق الآذان صوت البائسين وقد جلســوا أمام دورهم واضعين رءوسهم بين أفخاذهم لكثرة الغم والكــدر ، وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن « فرنسا » يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان قلعه فلا يزال له السـمو عليه ، ويختمون كلامهم بقولهم : « قد كان هــذا قدرا مقدورا » .

اذن فقد صارت « فرنسا » بكل مكان فى صــلة مع الاســلام بل صارت فى صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين ، وهى تدير اليوم شئونه ، وتجبى ضرائبه ، وتحشد شبانه لخدمة الجنــدية ، وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتــال . تلك المملكة الفسيحة

---

(١) نهر شارى هو الذى يصب فى بحيرة شاد فى وسط غرب افريقيا .

الأرجاء التى أنشأتها فى باطن القارة الأفريقية هى الوارثة لما أبقته الدول السابقة والأمم البائدة من « قرطاجيين » و « رومانيين » و « عرب » من آثار المدنية التى كانت القارة الافريقية منبتا لثمارها اليانعة .

خطر الاسلام

ان شعبا جمهورى المبادىء يبلغ عدد أبنائه أربعين مليونا ، لامرشد له الا نفسه ، لا عائلات ملوكية فيه تتنازعه الحكم ، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة ، هو الذى تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساوى ضعف عدده ، وهو ذلك الشعب المنتشر فى الأرجاء الفسيحة والأصقاع المجهولة ، والمتبع لتقاليد وعادات غير التى نعنو لها ونحترمها ، هو الشعب الاسلامى السامى الأصل الذى يحمل اليه الشعب الآرى المسيحى الجمهورى الآن ملح وروح المدنية . نعم ان ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهده لمعرفتها والاطلاع عليها .

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضا قريب منا فى « مراكش » تلك البلاد الخفية الأسرار التى يشبه وجودها الحاضر مقدور الأبد فى الغموض والاشتباه — قريب منا فى « طرابلس الغرب » التى تتم بها المواصلات الأخيرة بين مركز الاسلام فى البحر الأبيض المتوسط ، وبين الطوائف الاسلامية فى باطن القارة الافريقية — قريب منا فى «مصر» حيث تصادمت « الدولة البريطانية » فصادمتها اياها فى الأقطار الهندية وهو موجود وشائع فى « آسيا » حيث لا يزال قائما فى « بيت المقدس » وناشرا أعلامه على مهد الانسانية ، ويحسب أنصاره وأشياعه فى قارات الأرض القديمة بالملايين ، وقد انبعثت شعبة منه فى بلاد « الصين » فانتشر فيها انتشارا هائلا حتى ذهب البعض الى القول بأن العشرين مليونا المسلمين الموجودين فى الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون ، فيقوم

الدعاء لله مقام الدعاء « لساكيامونى » ، وليس هـذا بالأمر الغريب فانه لايوجد مكان على سطح المعمورة الا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشرا فى الآفاق ، فهو الدين الوحيد الذى أمكن انتحال الناس له زمرا وأفواجا ، وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل الى التدين به كل ميل الى اعتناق دين سواه ، ففى البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار ، قواعد الحياة ومبادىء السلوك فى هذه الدنيا ، كما أن أمثالهم فى القارة الآسيوية ينشرون بين الشعوب الصـفر الألوان قواعد الدين الاسلامى .. ثم هو ، أى هذا الدين ، قائم الدعائم ثابت الأركان فى أوربا عينها ، أعنى فى الآستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع ، الذى يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول العربية بعضها عن بعض شطرين .

***

فى باحات قصر يلدز ترى العلماء والدراويش وقد تدثروا بثيـاب الصوف ، وتعمموا بالعمائم الكبيرة ، جالسين على الأرائك بجانب سفراء الدول . هم هناك يمثلون فى الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لايتحركون من مقاعدهم ، ينبسون بكلمات تطـابق تحريك أيديهم حبـات السبح ، منتظرين مجىء دورهم فى المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم . وكل المسلمين ممن يقيمون فى « الآستانة » أو فى «مراكش» ، فى أرجاء آسيا أو أصقاع افريقية ، من بدو كانوا أو حضر ، واقفين فى أماكنهم أو سارين مع القوافل ، يركعون مع الراكعين اذا حانت الصـلاة ، يتوضئون أو يتيممون بالتراب ، مولين وجوههم جميعا شـطر الكعبة ، وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة ، أو يتزيون بالسترة الاسلامبولية ، والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رءوسهم ، والذين يضـعون السيف واليطقان فى نطـاقهم ، أو يتلقون العلوم فى مدرسة برلين الجامعة ، أو

يدرسون علوم السياســة فى باريس ، فانهم يولون وجوههم شــطر جهة واحدة ، هى الأرض المقدسة ، هى الأرض التى تكتنفها الصحراء ، هى الأرض التى عاش فيها محمد ، هى الأرض التى تتضمن جسمه المبــارك ، فى قبر لا يجسر أحد على الوصول اليه الا مغطى الوجه حياء وهيبة ، هى الأرض التى جاء منها الآباء ويعود اليها الأبناء بحركة مستمرة ، هى الحج الأبدى الى بيت الله الحرام ، وجميع المسلمين عن بــكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ، ويمدون اليه أعناقهم ولا يجدون لذة فى الحياة الا بأمل العودة اليه ، ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة . وخلاصة القول أن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة ، بها يدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم الى الوجهة التى يبتغونها ، وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذى تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه ، بل هى القطب الذى تنتهى اليه قوة المغناطيسية . ومتى اقتربوا من الكعبة — من البيت الحرام — من بئر زمزم الذى ينبع منه الماء المقدس — من الحجر الأسود المحاط باطار من فضة — من الركن الذى يقولون عنه أنه سرة العالم ، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التى استحثتهم على مبــارحة بلادهم فى أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق فى بيته الحرام — اشــتعلت جذوة الحمية الدينية فى أفئدتهم ، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفا وتقدمهم الامام مستفتحا العبادة بقوله : « باسم الله » فيعم السكون والسكوت ، وينشران أجنحتهمــا على عشرات الألوف من المصلين فى تلك الصفوف ، ويملأ الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد « الله أكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين : « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة .

ولا تظنوا أن هذا الاسلام الخارجى الذى تجمعه جامعــة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به ، لأنه وان كانت البلاد التى تحكمها شعوب مسيحية ليست فى الحقيقة بدار سلام وانما هى «دار حرب» (١)

(١) كان عند المسلمين داران : دار السلام ودار الحــرب ، ويقصدون بالأخيرة مناطق سكنى العدو المتربص على حدود الاسلام . أما مدن الحدود فتسمى بالثغور .

فانها لا تزال عزيزة وموقرة فى قلب كل مسلم صحيح الايمان . والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الأسد حول قفص حبست فيه صغارها ، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها .

ترى فى قرانا وبلداننا درويشا فقيرا شاحب اللون مدثرا بأرديته البيضاء المقلمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلويه عن ذلك شيء — هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمة الى خيمة ، ومن قرية الى قرية ، راويا حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام ، انما يبذر فى القلوب حيثما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا .

***

ان العالم الاسلامى منقسم الى طوائف وطرائق لا عداد لها ، ينخرط فى سلكها الألوف من رعايانا المسلمين ، ولكن ليس لها فى الغالب مراكز ولا زوايا بالأراضى الداخلة فى دائرة نفوذنا ، وغاية الأمر أن العاملين فى هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية ، فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ، ويحسنون وفادتهم ، ويكرمون مثواهم ، حتى ان الفقير منهم لا يرى فى اكرامه له أقل من أن ينحر له شاة .. هذا عدا ما يجمعه له من صدقات ذوى البر والاحسان ، أو من المرتبات المالية السنوية التى يبلغ ما يدفعه أهالى الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام ، وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لأن مقدار ما نجبيه من الضرائب كل سنة من أهالى الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ .

ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد أعضاؤه الى السكون ، وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا فى الجزائر وتونس على أحسن ما يرام . وما ذلك الا لأن الرابطة التى تربط بعضهم ببعض قد اعتراها

الوهن ، ولأن الفوضى التى أصابت الاسلام الافريقى قد أخذت نصيبها منهم ، ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما ، لأنها مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين ، وعلى كراهة المدنية الحاضرة ، وقد أسس الشيخ السنوسى فى جهة ليست بعيدة عن الأصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر مذهبا خطيرا له أشياع وأنصار ، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التى كان قائما بها هيكل الاله آمون (١) وقد هاجر أولاده الى « كوفرة » . ومن مذهبهم التشديد فى رعاية القواعد الدينية ، وقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ، ولكن يظهر أن أخلاقهم الشديدة قد تلطفت فتقربوا أخيرا من الدولة العلية . غير أن هذا لم يمنعهم من طرح حبائل الدسائس التى أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها فى أفريقية الجنوبية ، ولم يكن الأمر مقصورا على وسط القارة الافريقية ، فانه توجد بالآستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية ، تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى أنها تفترسنا اذا أغمضنا الطرف .

***

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين فى الجزائر ينقادون لأوامر سرية ، تناقلوها بالأفواه ، وكانت تقضى عليهم بتأليف الزمر والأفواج منهم لمهاجرة أوطانهم ، والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الأمن المرجو .

يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة فى ثنيات الفتوح ، وطى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التى حاقت بهم ، ولكن لم تثبط هممهم . نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكن

(١) لعله يقصد به واحة سيوه . ومن المعروف ان معبد الاله أمون كان يقع فى هذه الواحة ولا يغيب عن البال ان الاسكندر الاكبر المقدونى قد زار هذه الواحة ، ودخل حرم هذا المعبد فيها حيث اخذ من الهه آمون تفويضا بحكم العالم. وقد ذكر هذا المؤرخ و. تارن فى كتابه بعنوان « الاسكندر الأكبر » .

رابطة الأخاء الجامعة لأفراد العالم الاسلامى بأسره كافلة بالرئاسة ، ففى مسألة علائقنا مع الاسلام تجد المسألة الاسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض ، وهذا يجعل حلها صعبا ومتعذرا كما سنبينه .

المسائل الأساسية فى كل دين هى التى ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب ، وهى كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية ، تلقى فى النفس الاعتقاد بوعورة المسلك فى تفهمها ، مع أنها من الأمور التى ينبغى الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها . ان الدين هو الوسيلة التى تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية أو هو بعبارة أخرى الواسطة فى وقوف المخلوق بين يدى الخالق . اذا تقرر ذلك ، فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع فى نفس المخلوق استعدادا للعمل بمقتضى ارادته السرمدية بحيث لا يحيد عما تأمره به هذه الارادة ، أم للانسان — متى تم خلقه — ارادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لا يستمد من اختيار أسمى منه ؟ .. وهل للانسان — الذى خلقه الله وسواه — ارادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق فى ذاته ، أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه ؟ .

***

فى دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التى لم يوفق دين من الأديان ولا مذهب فلسفى الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل ، مع أن البحث فيها لاصابة هذا الغرض السامى لم يكن بالأمر الحديث ، اذ طالما بحث فيها فلاسفة الأقدمين فلم يجدوا لها حلا ، وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين .

وغاية ما عرف منذ العصور السالفة الى الآن أنه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة ، فالأول منهما يقول

بتناهى الربوبية فى العظمة والعلو ، وجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن . ويذهب الثانى الى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربى من الذات الالهية بما فطر عليه من ايمان وارادة ، وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات .

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الأول هى تحريض الانسان على اغفال شئون نفسه ، وبث القنوط فى فؤاده ، وتثبيط همته ، وايهان عزيمته ، بينا تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى الى ميدان الجلاد والعمل ، وتلقى به فى غمرات التنافس الحيوى ، ومن الأمثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضى عليهم بالتجرد ، اذ من قواعده أن الانسان والكون يفنيان فى الذات الالهية (١) وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الاله بالانسان فى أوصافه المادية ، يقضى عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو « البطل » يمكنه أن يعتبر فى عداد الآلهة بحسناته وخيراته .

وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان ، احداهما ربانية ، والثانية بشرية ، تمثلانه فى ذينك المذهبين المتناقضين ولكن بتلطيف فى التناقض . أما الأولى فهى الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية ، وان كانت مشتقة منه وغصنا من دوحته ، ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية ، على حين أن الديانة الثانية وهى الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان الى أسفل الدرك ، وترفع الاله عنه فى علاء لا نهاية له .

---

(١) معنى كلمة « بوذا » هى كشف نقاب الجهل عن وجه هذا العالم . وكان هدف المعلم بوذا الذى عرف بهذا الاسم هو خلاص النفس من متاعب الحياة وآلامها . فقد جاء فى نص قديم ينسب اليه ـ الى بوذا ـ ويوضح حقيقة الرسالة التى كافح من أجلها ما يلى :

« لما كان المحيط الكبير ليس الا مذاقا واحدا هو الملح الاجاج ، كذلك الحال مع هذه الحقيقة ليس لها الا مذاق واحد هو مذاق الخلاص والتحرر » .

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهورا واضحا فى الاعتقاد الأساسى لكلتا الديانتين ، وهو أصل الألوهية ، أما المذهب المسيحى فيذهب فى هذا الأصل الى الثالوث أى أن الاله الأب أوجد الابن واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس ، وعليه فيكون يسوع المسيح الها وبشرا — هذا الثالوث السرى المشتقة أصوله من ضرورة وجود اله بشرى يمحو ذنب الجنس البشرى ويفديه من الخطيئة التى اقترفها ، يرفضه المسلم الذى يعتقد بوحدانية الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديدا حيث يقول : « لا اله الا الله »

غير أن ادراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة ، اذ هو يحملهم على اتيان الأعمال التى تقربهم الى الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته الجليلة موصولة فى حين أن المسلمين تجعلهم دياناتهم كمن يهوى فى الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله الأحد الذى هو مستودع الآمال ولفظة الاسلام معناها « الاستسلام المطلق لارادة الله »

ترى الديانتين أو بعبارة أخرى المدنيتين المسيحية والاسلامية احداهما بازاء الأخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، اذ هما مشتقتان من الأصول اليونانية السامية ومنها استمدتا جانبا من العقائد والمذاهب والآداب فهما اذن متداخلتان فى بعضهما من وجوه عدة ، ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة فى الحقيقة من حيث البحث فى القدرة الالهية والحرية البشرية .

رأيان فى الاسلام

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الأشباه نقطة تفرع الطريقين المختلفين اللذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين

الدينين المسيحى والاسلامى فرأى فى الاسلام العدو الألد والخصم الأشد. قال المسيو كيمون فى كتابه « باثولوجيا الاسلام » : « ان الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا بل هى مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح ، وماقبر محمد فى مكة(١)الا عمودكهربائى يبث الجنون فىرءوس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهستيريا « الصرع » العامة والذهول العقلى وتكرار لفظة الله الى ما لا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ، ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحانى والليمانيا أو الماليخوليا وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات .. الخ .. الخ .. »

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة « كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون » وان الواجب ابادة خمسهم « كما يقول أيضا » والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر « وهذا أيضا قوله » .. وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى .. أليس كذلك ؟.. ولكن قد يرح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليون مسلم وأن من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم .

ويذهب غير أصحاب هذا الرأى الى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الأخاء والتصاحب ، وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقى مبدأ وأسمى كعبا من الدين المسيحى . قال المسيو لوازون « القس ياسنت سابقا » معترفا ومقرا أن الاسـلام هو الدين المسيحى

(١) المعروف ان قبر النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة المنورة وليس فى مكة كما ذكر كيمون . وهذه جهالة منه بأمر معلوم ذائع .

محبسا ومحورا ، ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المنشودة ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم فى وجوب احترام الاسلام وتبجيله ، مستندين فى ذلك على ما دونه أحد مؤرخى الكنيسة الذى صار فيما بعد كردينالا حيث قال : « ان الاسلام قنطرة للأمم الأفريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه مقصورا على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح ، بل لا بد من رعايته وتعضيده بأن نسعى فى توسيع نطاقه ، وترتيب الأرزاق على المساجد والمدارس ، وجعله رائدا لمدنية فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد »

هذا هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمسالمة ، ولكنهما وان افترقا ، متصل بعضهما ببعض وموجودان فى حيز واحد . وقد لوحظ كثيرا أن كل فرد من أفراد موظفينا أو وكلائنا أو أبنائنا المستعمرين قد حار بين المبدأين ، وسلك الخطة التى رسمها لنفسه تجاه المسلمين طبقا لميوله نحو قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد بأحدهما المتطرفون وبالآخر المتعصبون ، ولا وسط بينهما .

وتلك الميول المتعاكسة التى برزت من مكان الاعتقاد الى مجالى الفعل والتنفيذ ، هى التى أحدثت التناقض فى أعمالنا الاجتماعية والسياسية والادارية ، وأدت الى الشكوك والريب ، ونقض ما أبرم ، وابرام ما نقض الى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ولا سيما فى البلاد الأفريقية من عدم السير على وتيرة واحدة . هذا الخلل ينمو شيئا فشيئا ويتضاعف خطره كل يوم ، اذا فكر الانسان فى أنه لا يصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم أربعة ملايين أو خمسة فقط ، بل يسرى على نصف قارة بأكملها عديدة السكان ، وسيزداد ويتضاعف عددها بامتداد رواق الأمان على الأهالى وابطال التجارة فى الرقيق .

المسألة خطيرة

فالمسألة اذن خطيرة جدا ولا بد من الاعتماد على أمر واحد فى حلها ، اذ لا يكفى للوصول الى هذا الحل تنميق عبارات وتسطير كلمات ، ولذلك خيرت أن أعرضها على محك الرأى العام ، مبينا أحكم الوسائل وأكثرها انطباقا على العقل والصواب ، للوصول الى نتيجة فعلية ، وموردا شيئا واحدا هو من ألزم الأشياء لموضوع تلك المسألة وأشدها ارتباطا به .

قد سبق لى وقتما تم تشـــكيل مملكتنا الأفريقية تشكيلا تاما ، أن سألت — ولا زلت أكرر هذا السؤال — الحكومة أن تبحث بحثا علنيا فى علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين ، بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين ، ليتجلى هذا البحث عن الخطة التى يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه .

ان الراغب فى الاستعمار من أبناء بلادنا يصل الى الجزائر أو تونس أو السنغال ، فيجد نفسه فى اتصال مع العربى ، أو بعبارة أعم مع المسلم ، اذ منه يشترى الأرض التى يريد استنباتها ، ومنه يطلب اليد العاملة ومعه يدبر شئونه المعيشية ، فبالرغم عن هذا الاتصـــال وعن هـــذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدهما الآخر ، وتنفرج مسافة هذا الجهل وتكون عواقبه أكثر خطرا ، اذ كانت العلاقة بين الأهالى وبين الموظف أو الحاكم أو القاضى أو الضابط أو غيرهم ، ممن هو منوط بالفصل فى خصوماتهم ، والقيام على شئونهم ، وتنفيذ قوانيننا بينهم ، وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا أو رجال حكومتنا المركزية التى يديرها أحد عشر وزيرا ، ربما لا يوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أنعما النظر فى خريطة الأنحاء الواسعة والأصقاع القصية التى عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها .

مع أن الواجب متى رضينا باحتمال هذه المسئولية على عواتقنا ، ونلنا هذه السلطة أن نطيل البحث ونمعن النظر فى طرق استخدام هذه السلطة وأن نسأل الخبيرين والعارفين ، ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ونستمد من معلوماتهم ما نستعين به على تحرير متن سياسى وجيز يتضمن أصول ومبادىء علاقاتنا مع العالم الاسلامى . ان فريقا كبيرا من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين قد كانوا ولا يزالون على اتصال بالمسلم . وجعلوا أحوال معيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم . ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبئوننا بما نجهله من بقية أخبارهم ، فهم اذا سئلوا أجابوا ، واذا أجابوا أفاضوا ، وقد كثرت الأبحاث فى كل موضوع ، حتى فى الموضوعات الصريحة الواضحة ولم يفكر أحد فى الأمر الذى نحن بصدده ، وهو من أكثرنا غموضا والتباسا ، فلماذا لا نستعين بالوسيلة التى تفيض علينا أنوار الحقيقة ، ونطرح من هذه الأنوار شعاعا على من يريدون اتباع الصراط المستقيم ، حتى اذا ما تم التحقيق والبحث حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالةتذاع على الألسنة ، وتتداولها أيدى الموظفين والمستعمرين ، وتنشر بين الطلاب فى المدارس فتنمحى بها آثار الأضاليل والترهات الكثيرة ، وتزول العقبات القائمة ، وتقال الأقدام من العثرات ، وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية يجرى على نهجها كل عامل ، فيعم نفعه وتجتنى ثماره ، وربما كان سببا فى أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختيار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا فى عرض البلاد وطولها لا رابطة بينهم ولا صلة ، يواصلون الصباح بالمساء فى الندم والحسرة من عواقب هفوة أو زلة سقطوا فيها . وكانت كلمة واحدة كافية لاقالتهم من عثرتهم واصلاح هفوتهم . ولست أظن أحدا يرتاب فى نتائج ذلك التحقيق . وانما قبل ختام هذا الفصل أورد بعض اعتبارات أخالها ضرورية للوصول الى الغاية المقصودة من أقوم طرقها .

أشرت سابقا الى الصلة الأكيدة بين السياسة والدين فى العالم الاسلامى ، والمسلمون فى الأحوال الراهنة شاعرون شعورا قويا بايمانهم العام ، غير أن ادراكهم من حيث الجامعة السياسية ، وما كان يسميه القدماء بالرابطة المدنية أو الوطنية ، اذ ينحصر الوطن عندهم فى الاسلام ، فلا يجوز أن يتولاها الا من كان من عقيدتهم . ولم تدخل فى رءوسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التى تمكنت من أفئدتهم ، وأخذت من قلوبهم أمتن مأخذ ، فكان ذلك سببا فى حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية .

على أنه بالرغم من ذلك قد حصل انقلاب عظيم فى بلد من هذه البلاد فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء ، نريد به القطر التونسى الذى وضعت عليه الحماية التى مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس ، والمحافظة على مركز الباى ، وقد بالغنا فى ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئا فشيئا ، وأجريناه من المراقبة على شئون الأمور الادارية والسياسية من التداخل فى شئون البلاد ، والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها .

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتألم منه الأهلون ولم تنخدش له احساساتهم ، اذ لبثت المساجد مغلقة فى أوجه المسيحيين ، والأملاك الموقوفة محبوسة على السبل التى خصصت لها ، وتركت أزمة الأحكام بأيدى القواد والقضاة ، ولم يغير شىء من القوانين الأهلية الا برضا وتصديق من الأهالى ، وربما كان يطلب منهم ، وقام بأعمال هذا التغيير والتبديل وهذا النسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين أكثرهم من التونسيين . وجملة القول أن انقلابا عظيما حدث بدون أن يجر وراءه ألما أو توجعا أو شكوى ، بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس .

اذن يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الاسلامية الأخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض . اذن توجد أرض تنفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضى الآسيوى . أرض نشأت فيها نشأة جديدة ، انبتت فى قضائها وادارتها وعاداتها وأخلاقها ، أرض يصح أن تتخذ مثالا يقاس عليه ، ألا وهى البلاد التونسية .

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد اذ حكمت فيها قرطاجنة ورومية وبيزنطية والعرب وسان لويس وشارلكان فأصبحت الآن مهبط المسالمة ومعهد التصالح والوئام ، ففيها الديانتان بل المدنيتان متلاصقتان بل متداخلتان ، حتى تأكدت نقط التشابه بينهما وانحسرت فرجة الخلاف وارتفعت الأحقاد من الصدور رغبة من الفريقين فى التمتع بمزايا الأراضى الخصبة والسماء الصافية الأديم التى ينزل منهـا على القلوب برد وسلام بلطفانها ولعل الأطلال العديدة الشـاهدة على ما تعـاقب فى الأقطار التونسية من المدنيـات القديمة ، تندثر تماما ولم ينمح أثرها كى تهتز لاستقبالنا ويوصل بعضها ببعض ما انقطع من حلقات الدهر الماضى .

ان مسجد القيروان (١) الجامع شيدت عقوده على الأعمدة القديمة ، وبنيت كنيسة الكردينال لافيجرى الكاتدرائية تجاه أكمة « بيرسا » التى عبدت فيها تانيت . وخلاصة القول أن مزيجا من التاريخ يركب فى هـذه الأرض تحت رعاية فرنسا وانسانيتها ، ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضى فتعيش فى خلال الجيل الذى نطرق الآن أبوابه .

مقال هانوتو الثانى

من المسلم به أنه يتعذر على الرد فى هذه الجريدة على جميع الرسائل التى ترد الى بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ، ولذا أشـكر

(١) القيروان مدينة تونسية شهيرة بمسجدها . انشأها عقبة بن نافع عام ٦٧٠ م فصارت عاصمة افريقيا . وقد بلغت أوج عزها على أيام الملوك الأغالبة فى القرن التاسع الميلادى . وكانت دارا للصناعة ومحطا للقوافل وسوقا للتجارة .

جميع الذين راسلونى شكرا جزيلا ، وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به على وأبانوه لى محفوظ فى مخيلتى . ولا يبرح عن ذاكرتى ، واننى أجد فى تبادل الأفكار على هذا المثال خير معوان وأحسن مشجع ، وبالرغم مما يخالجنى من الميل الى عدم قصر البحث فى نوع خاص من الموضوعات ، أرى أن لا مندوحة لى من العود الى بعض المناقشات التى أثار عجاجها الفصلان اللذان نشرتهما حديثا فى مسألة الاسلام ، والحق يقال : اننى أصبحت بسببهما ، كما يقال ، بين نارين : فالمسيحيون أنحوا على بالتعنيف واللوم قائلين : اننى تظاهرت بالميل للاســلام ، واتخذنى المسلمون خصما لدودا لدينهم ، وهو ما يثبط همة الانسان عن اتباع خطة المسالمة والتوفيق ، لو لم يعرف من قديم الزمان أن الذين يتصدون الى بيان الحقائق بالتصور والتعقل انما يشبهون سندان الحداد تتلاقى عليه ضربات المطرقتين .

ويجب قبل الدخول فى الموضوع أن أشير الى طريقة من الجدل : كان الجهل بلغتنا ، وهو فى نظرى أكثر تأثيرا من سوء القصد ، سببا فى اتباع بعض الجرائد الاسلامية لها وسيرها على سننها ، فان جريدة «المؤيد» التى تظهر فى مصر «القاهرة» قد نشرت ترجمة أو بالأحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين كتبتهما على الاســلام ، ولعل القراء يذكرون أننى أوردت فيهما آراء كيمون التى أبداها فى كتابه « باثولوجيا الاسلام » وان ايرادى لها كان على سبيل الحكاية والنقل ، اذ أشرت الى خطر شدتها ، وأبنت العواقب الضارة التى يفضى اليهــا الجدال السياسى فى الخواطر السريعة التأثر والانفعال ، ولكى لا يختلط على الذهن شىء من أقوال كيمون التى أوردتها ، وضعت فى آخر كل عبارة من عباراته كلمتى « أنا أنقل » محصورتين بين قوسين دفعا للالتباس ومنعا للشك .

بالرغم من هذه الاحتياطات نسبت الى تلك الأفكار التى عمدت الى دحضها واظهار فسادها حتى أن أحد (١) كبار أئمة الدين الاسلامى كلف

(١) يشير الى الشيخ محمد عبده . وسيأتى رده فى الفصل القادم .

نفسه مئونة الاجابة فى جريدة « المؤيد » على أفكار ليست أفكارى ، بل هى نقيض ما ذهبت الى تعضيده واستحسانه فى بحثى ، ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار فى بحثه أشبه بمن يدفع بابا مفتوحا من ذاته سواء قرأ ما سطرته فى الأصل الفرنسى أم وقف عليه من الترجمة . اما أنه لم يفهم مرادى واما أن الترجمة كانت فاسدة لم تتوافر فيها شروط الأمانة ، لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لأقواله على حقيقة فكرتى التى كشفت النقاب عنها فى آخر مقالتى ، وكلها احترام واعتدال ومسالمة ، وتوفيق على احدى الجرائد العربية التى تنشر بمصر ، ولها شهرة فائقة فى جميع العالم الاسلامى ألا وهى جريدة « الأهرام » قد أتت بتلك الملاحظات أحسن مما أستطيع ايرادها به ، فان محررها « المسيو تقلا » الكاتب الشهير والذى يدير فى آن واحد جريدة « البيراميد الفرنسية » قد اقتفى أثر ملاحظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ولم يبق لى — بعد مناقشته التى روعيت فيها أساليب اللطف والحذق — مجال للكلام ، أو شىء كثير من القول أضمه الى قوله ، على أننى أستنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها فى نظرى كلما تقدمت فى طريق العمر ، وحبوت نحو الشيخوخة ، وهى أن منشأ المشاكل والصعوبات التى تقوم بين الناس هو سوء التفاهم والخطأ فى معرفتهم مقاصد بعضهم بعضا ، اذ كثيرا ما كان الغلط الناشىء من سوء تلاوة كلمة أو القصور عن ادراك معنى جملة ، أو فهم مغزى رأى من مرامى حيلة من حيل المناظرة ، سببا فى جر ما لا يحصى من المصائب بل سببا فى انشقاق قوم كانت تجمعهم لحمة الاتحاد ورابطة الجوار ، وكانوا الى الالتئام والاتفاق أقرب منهم الى الخلف والانشقاق .

ولو أمكن محو ما تراكم شيئا فشيئا حول ما يقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب الضارة والشدائد التى لا فائدة منها ، وتيسر العود الى النقطة الأولى التى كانت مبدأ النزاع وسبب الاختلاف ، لاندهش الانسان من السهولة فى تذليل الصعاب ، وتمهيد المشاكل التى جعلت الفارق عظيما

ومسافة الخلف بعيـــدة . ولقد قيل : ان العالم ميـــدان يتنازع فيه بنو الانسان ، وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على الفهم أن يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة فى الرداءة والسوء مبلغا عظيما ، حتى لقد تمر على الانسان لحظات يسائل فيها نفسه ، عما اذا كان فى الامكان اصلاح ما انثلم من حوادث التاريخ باجتهاد الناس فى فهم مقاصد بعضهم بعضا .

ومن الأمور التى لا يزال خاطرى منصرفا اليها أن المسائل المشكلة ، ولو كانت من أهم المسائل وأخطرها تتضمن فى ذاتها الحل الملائم لها . والمطابق للانصاف والسلام ، وكنت ولا زلت على اعتقاد وطيد فى المباحثات المتعلقة بمصلحة من المصالح وفكرة من الأفكار ، بأنه متى كان الطرفان على جانب من طهارة الذمة وحسن النية ، وجعلا غايتهما القصوى المسالمة والاتفاق ، واتخذا لذلك وسائل الحكمة والتدبر ، وصدق اجتهادهما فى التجرد عن الأهواء ، فانهما يصلان الى نقطة تتفق فيها مقاصدهما وتتطابق رغائبهما .

وقد اعتقدت دائما أن للسياسة على الخصوص مهمة فى هذا المعنى ينحصر فيها شرفها ، وترجع اليها كرامتها ، ليس بما تعلقه الشعوب من الشكر والاعتراف بالجميل فقط ، بل بحسن العمل العقلى الذى يقوم به السياسيون بدون لغط ولا ضوضاء فى سكون مكاتبهم ، أما الاعتماد على القوة والركون الى العنف الذى هو أخص ما يلتجىء اليه القوى فهو من أخريات الوسائل وأحطها ، وهو حيلة من لا حيلة له .

ويظن الناس فى الغالب أن الواجب التفـــرقة بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق ، وهو خطأ بين وغلط ، اذ بين السلم والحرب ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها ، وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضا على المناقشات الفلسفية والدينية ، اذ للأفكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال ، وليس التسامح من مخترعات هذا العصر ،

بل نقيضه من مخترعاته ، لأننا اذا نظرنا فى أصول المشاكل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التى تعذر التوفيق بعد فيما بينها ، أعظم من الانفراج المستحكم بينها . وخلاصة القول أن معيشة بنى الانسان مع بعضهم بعضا بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم وحسن ارادتهم .

***

وقد حدا بى هذا البحث الى نوع آخر من الانتقاد صوبه نحوى بعض المسلمين ، وليس المقصود به السياسة فى هذه المرة بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية . وقد انتهت الى رسالتان غريبتان فى هذا الباب ، احداهما من رجل مشهور الاسم فى فرنسا وهو « أحمد رضا » مدير جريدة « مشورت » الذى جمع ملحوظاته فى رسالة سماها « التسامح الاسلامى » وقصد بها الرد على الكتاب الغربيين الذين يتهمون العالم الاسلامى بالتعصب الدينى ، واستشهد فى خاتمتها بكلمات قالها الكردينال « لافيجرى » وهى : « أجاهر علانية بأننى أعتبر اثارة خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر فى دعوتهم الى الدين المسيحى اثما من الآثام وضربا من ضروب الجنون » ، وانه ليفيض بى الكلام على الوصف الذى وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ، ولكنى على ثقة من أن تبادل الشكوى أو الشتم لا يحدو بنا الى الغاية السلمية التى نقصدها ، وان الاجتهاد فى فهم بعضنا مقاصد بعض أولى وأحسن من الصياح والعويل لمنع الناس من الاتفاق والوئام .

وقد وردت الى رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة أحمد أفندى مدحت أكبر كتاب الترك فى الحاضر ، وانى آسف شديد الأسف من عدم امكانى نشر مضمونها بأكملها فى هذا المقام لطولها وغموض مباحثها ، ولا ريب فى أن القراء الفرنسيين كان يسرهم أن

يتلذذوا بتلاوة انشـــاء شرقى مكتوب بلغة فرنسية صحيحة ، غير أن فى المباحث الدينية ، ولو كانت متلعقة بالاسلام ، شيئا من الاكفهرار والتجهم. على أن هذا لا يسنعنى من ايراد شذرة قصـــيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الاسلامى ، وهاهى : « فيما يتعلق بالايمان والضمير ٠٠ كل مسلم رقيب نفسه ، فهو لا يقدم لأحد سوى الخالق جل وعلا حسابه عن أقواله وأعماله ، ولم ير النبى محمدا عليه الصلاة والسلام ولم تسمح له فرصة رأى منها لنفسه حقا أو سلطة يخوله لأنفسهم رجال الاكليروس « الدين » فى الديانة المسيحية ، بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين أمام عدالة الحق سبحانه وتعالم وهو ما يؤخذ منه أنه لو ســأل أحدهم ما هو الاسلام ، لأجاب المســلمون على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قــرره القرآن الشريف — فالديانة القرآنية لا تهوى بالانسان باقصاء الاله عنه فى نهاية الفضاء — اذ جاء فى القرآن الشريف « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » هذا الدين فرق بين الانسان من وجهتيه الأدبية والمادية ، فحدد أحواله فيهما بكيفية موافقة للادراك البشرى » . ثم اســتنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعا عن الدين الاسلامى يراه أرقى وأحسن ما يدفع عنه به ، وأخذ يعتب على لكونى اختصرت البحث فى المسألة الفلسفية ذريعة الى قصر الكلام على المسألة السياسية .

واننى أعترف بأننى انصرفت أثناء سياحتى فى الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها الى غيرها ، واذا كان القارىء لا يمل حديثى فاننى أورد هنا بايجاز كيفية الأســباب التى حملتنى على هذه الســياحة وقصر مباحثى مؤقتا على أعظم مشــكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية :

لما كنت أقرر مباحثى فى تاريخ الكردينال ريشــليو ، وصلت الى النقطة التى أفضت به الظروف الى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التى حومت حوله ، واستلفتت أنظاره ، ففى أواخــر عام ١٦٢٢ وأوائل عام

١٦٢٣ ، أى فى ابان استلامه زمام الأحكام ، ظهرت المسألة البروتستانتية ، وسوف أورد كيفية حله لها ، ولكن ما يعرفه القليل هو أنه عرض عليه الحكم فى المسألة المحمدية ، أو بعبارة أهل ذلك الوقت ، فى المسألة الصليبية (١) .

وكان يوجد فى فرنسا وقتئذ جمع غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئناف الحروب الدينية التى اشتهرت بها القرون الوسطى ، واسترسل فى هذا الموضوع كثيرون من أخص أصدقاء الكردينال ريشيليو الذين أخذوا بناصره فى خطاه الأولى ، ودالوه بنصائحهم وسطوتهم ، ومنهم الدوق دى نيفير ، والأب جوزيف صديق ريشليولجيم ومشيره الخاص الذى انطوى معهم فى أفكارهم قلبا وقالبا ، حتى لقد بدىء فى ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية ، ويمكن القول بأن حزب الملكة مارى دى مندیسی الذى أجلس ريشليو على منصة الأحكام وكان يسمى بحزب الكاثوليكيين حزب من الصليبيين .

فما كان من الكردينال ريشليو الا أن قطع كل صلة من أصدقائه رافضا أن يكون آلة بأيديهم ، بل كان منه أن جذب الأب جوزيف الى ناحيته ثم ولى وجهه عن الاسلام فحارب — كما هو مشهور — الأسرة النسماوية . والحق يقال أن الكردينال كان من أقل الناس تعصبا ، فانه قبل أن يأتى بما عمل به ، بنى عمله على أسباب تأمل فيها طويلا واستنجد وقارن ، وأن هذه الأسباب هى التى كنت أروم الوقوف عليها لاظهارها .

---

(١) ليس عجيبا ان يدافع الوزير هانوتو الفرنسى عن الوزير الفرنسى ريشليو . والحقيقة التى تبدو واضحة من تاريخ ريشليو انه كان رجلا شديد الدهاء ، عظيم الذكاء ، وأن تنحيه عن الاشتراك فى الحروب الصليبية ، وعدم الاستجابة لرغبة الذين أشاروا عليه بذلك ، لم يكن ذلك منه الا بدوافع اخرى غيرعدم الرغبة الشخصية، فقد كان اول كل شىء يريد أن يوطد مكانته ، ويرسى قواعد حكمه على أسس قوية . وكان ريشليو يحارب مختلف التيارات السياسية فى بلاده ، ويقف بالمرصاد لمؤامرات خصومه ، فلم يكن من حسن الراى بتاتا أن يرسل الى خارج بلاده جيشا هو فى أمس الحاجة اليه داخل البلاد . وكان من ناحية اخرى لا يرى ثمرة لمثل هذه الحروب المشتركة ، مما يمكن ان يعود على فرنسا بفوائد يستطيع أن يواجه بها خصومه الكثيرين ، ويفخر بها عليهم . فلم يكن تنحيه عن الحرية الصليبية نزعة استقلالية كما يقول هانوتو ، ولكنها دواعى السياسة الداخلية هى التى أرغمته على هذا الموقف .

وقد تابعت البحث والتنقيب على هذا المثال فى أسبانيا وأفريقية الى حيث تلك البقعة التى تم بها الاقتران بين العالمين الشرقى والغربى ، أريد بها تونس ، هذا هو السبب الذى استحثنى مع أسباب أخرى على النقلة الى تلك الأصقاع باحثا ومفكرا . شاهدت فيها أطلال قرطاجنة أى أطلالها فى عهد هانيبال (١) والقديس أوغسطين (٢) وفى عهد سان لويس وشارلكان ، فتجلى لى وأنا واقف على تلك الطلول أن الأرض التى كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضا مهبط السكينة والسلام .

أما الأسباب التى حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية فلسوف أبينها فى يوم ما . ولكننى بالبحث فى الماضى والمشاهدة العيانية فى الحاضر قد توصلت الى البحث عن مبادىء الاتفاق والوئام فى عين المكان الذى اشتهر بأسباب الشحناء والبغضاء ، بحثت عن أصول هذه الأسباب فأشرت الى السلم الناشىء من الحماية ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس ، كان لا يظن أنهما يجتمعان فى وئام واتفاق ، باحترام كل منهما معتقدات الآخر . لما لاحظت هذه الأمور ، كنت أود مداراة العواطف ، والاقتصار على عبارات التسامح والمسالمة ، والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ، ولكن يظهر أن هذا صعب المرام ، اذ الجميع لم يفهموا مرادى ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدى ، ومهما يكن من الأمر فان من الأمور المهمة قيام الأفكار فى البلاد المسيحية والاسلامية قياما اذا تحركت فيه بالحركة الطبيعية المبنية على حسن النية وطهارة الضمير ، كانت نتيجتها التقريب والتوفيق لا الابعاد والتفريق .

---

(١) هانيبال قائد افريقى من قرطاجنة دوخ الرومان والدولة الرومانية فى عز مجدها وسطوتها ، وقد هاجم روما برا من ناحية أسبانيا ثم عبر جبال البرانس الى فرنسا ثم عبر جبال الألب الى حوض البو فى ايطاليا ، وبعدئذ اتجه جنوبا الى أن هزمته روما فى موقعة ترازمين عام ٢٠٢ قبل الميلاد . ولقد تعقبت روما القرطاجيين من بعده الى أن انتهى الأمر بتدميرهم قرطاجنة (فى مكان تونس الحالية) تدميرا تاما فى عام ١٤٦ ق٠م ٠

(٢) القديس سانت اوغسطين .. كان رجلا متدينا راعته غزوات الجرمان الوثنيين المروعة على مدينة روما المسيحية فكتب كتابه المشهور « مدينة الله » صور فيه اختلاجاته وعقيدته ، واهاب بالمسيحيين انقاذ مدينتهم وديانتهم ٠

هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشيء مما خطأه به الأستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ، ولكنه تنسم من الكلام أن الترجمة تشعر بأنه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهذا صحيح .

حديث هانوتو مع صاحب جريدة «الاهرام»

في يوليو سنة ١٩٠٠ — الذى نشر فيه هانوتو رده السابق على الأستاذ الامام سافر الأستاذ بشارة تقلا والتقى به فى باريس ، فجرى بينهما حديث عن هذا الموضوع نشر فى عدد « الأهرام » يوم ١٦ من هذا الشهر ، وقد قدمه صاحب « الأهرام » بما يلى :

رأيت وأنا فى باريس أن أقابل المسيو هانوتو وأقف منه على حقيقة الأحوال بوجه عام ، وعلى الغاية التى قصدها ويقصدها من كتاباته الأخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ، ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسى الواقف على أحوال أوربا والشرق ، وكنا نعتقد ، كما قالت « الأهرام » مرارا وتكرارا ، أن تقدم الشرق يكون بتقدم الأمة الاسلامية ، توخيت أن أنشر أقواله وآراءه ، فاستأذنته بذلك فأذن لى . قال :

أنتم تعرفون من تاريخ أوربا أن أممها ما تقدمت علما ومدنية واختراعا الا يوم تقيدت السلطة المدنية ، وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة ، وأنا لم أكتب الا الى أبناء وطنى الفرنسيين ، ولم أستشهد بكيمون ، وهو يونانى الجنس ، الا لأفند أقواله التى لم ينفرد بها ، فان كثيرين من الكتاب الالمانيين والفرنسيين والانجليز وغيرهم حذوا حذوه ، وقالوا قوله ، وخلاصة كتاباتهم ، أن تقدم المسلمين مستحيل ، ونجاحهم بعيد ، لأن الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وحجة هؤلاء واحدة ، وهى أنه كلما تقدمت أوربا تأخر الشرق ، لأن الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماشى ، وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت

على منهاج أوربا علما ومدنية نجحت ، مع أن الدولة العثمانية وأفغانستان ومراكش والعجم لا تزال على ما كانت عليه فى السنين الغابرة ، وانما ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه لاعتقادى أن الاسلام لا يحول دون الاصلاح والمدنية ، واستشهدت على صحة معتقدى هذا بتونس ، فذكرتها مثالا أؤيد به أقوالى ، وسياستى هذه هى روح كتابتى السابقة وانها ستكون روح اللاحقة .

والذى دعانى الى ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لا يخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الكرات الصليبية كما كان فى العصور الخالية ، وما دفعهم فى الأيام الأخيرة الى ذلك الا الحوادث الأرضية وغيرها (١) : ولما كنت قد وقفت نفسى لدراسة حياة ريشليو السياسى الشهير ، وسرت فى أكثر أعمالى وكتاباتى على منهاجه ، وعرفت أن هذا الرجل مع أنه كاثوليكى وكردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء ، سياسة الصليبيين ، وحال دونها بدهائه المعروف ، مع أنه كان القابض على سياسة فرنسا وأوربا معا ، فاذا كان هذاالسياسى الكاثوليكى قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقربين اليه فى تلك الأعصر ، أى السياسة الصليبية ، فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذها . لا لعمرى ، فلهذا عارضت بالأمس ، ولهذا أعارض اليوم ، ولحسن الحظ أن الرأى العام اذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم ، فهو لا يريد حربا تشب نارها اعتداء ، ولا سيما الحرب الدينية ، فهى عدوة المدنية بل هى أفظع الأعمال .

على أن معارضتى لأمثال هؤلاء الكتاب ، أى نقضى لأقوالهم ، لا يمنعنى عن أن أقول لكم الحقيقة ، لأنه يستحيل على أن أقول : ان شرقكم

---

(١) اختلفت الآراء وتضاربت فى تقرير دوافع الحروب الصليبية فقال البعض انها حروب دينية بحتة ، وقال آخرون انها حروب استعمارية . والواقع الذى يستطيع كل من تتبع تاريخ هذه الحروب ان يلمسه ويدركه ، هو أن هذه الحروب كانت دوافعها دينية واستعمارية .

سائر على منهاج حكومات أوربا فى العـدل والحرية والمدنية ، كما أنه يستحيل على أن أقول : ان حالتكم الحاضرة ضمان لمستقبلكم السياسى ، فاعلم أن أوربا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لا عن عدم اعتقاد ، بل لتفصلها عن السلطة المدنية ، فان المتـحاربين كانوا من معتقد واحد ، ولكن أراد أفراد أممها أولا ولفيف شعوبها ثانيا أن تكون الكلمة الأولى للسلطة المدنية فى أحوال الحكومات وشئون الشعب ، وأن يكون للمعتقد حق الأدبيات الدينية بأن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

اعلم أن الذى أيد هذه السياسة أيضا فى بلادنا فرنسا ، هو أعظم تلامذة روما وأحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية أى الكردينال ريشليو ، فهو الذى قال بفصل السلطتين ، ولم تنسـه واجباته الكنسـية الدينية معرفة الحقيقة ، وهو بهذه السياسة خدم السلطتين أشرف خدمة ، اذ أيد السلام بينهما فتأيدت سـطوة الحكومات وتقدمت شعوب أوربا تقدما عجيبـا ، واعتزت السلطة الدينية أيضـا ، وعاشت السـلطتان بوفاق وسلام .

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسيين فى مستعمراتنا بأن يكون الأمر المطلق للسلطة الحاكمة ، مع احترام عقـائد الشعوب التى تحت حكمنا وسلطتنا ، وهو ما سرنا عليه فى الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسية .

***

وانى لا أكلمك كمسيحى بل كمؤرخ ، وكاتب حر الضمير ، لا شأن لغيره فى معتقده الخاص ، ولكننى أحترم أدبيات كل دين ومعتقده ، وأقدر تلك الأدبيات حق قدرها ، ولكن المـاديات غير الأدبيات ، والأولى من شئون عالمنا هذا الذى نعيش فيه ونحيا به ، وكل أمة لم تتقدم فى ماديتها لابد أن تموت ، اذ لا حيـاة بلا مادة ، والهكم أنتم أيها الشرقيون اله

أوربا واله أمريكا ، اذ أن اله الجميع واحد ، ولا يمكن أن يكون أكثر انعطافا على الأوربى منه علـى الأمريكى ، فالشرقى ، بل ان الشرقيين عموما ، أكثر تمسكا بعقائدهم من الغربيين ، وقد علمنا أن أوربا فاقت شرقكم بمراحل ، ونرى اليوم أمريكا تزاحم أوربا ، وكثيرا ما فاقتها فى اختراعاتها وفنـونها ، ولم يكن ذلك لأن الله سـبحانه وتعالى أميل الى الأمريكى منه الى الأوربى أو الشرقى ، ولكـن لأن الأخـير مستميت والأول حى ، هذا يشتـغل مجتهـدا ، وكلما زادت أرباحه زاد نشـاطا واقداما ، وذاك يقضى حياته بين القنوط واليأس مستسلما ، ولهذا تقدم الأوربى وتأخر الشرقى وضيق أوربا بأهلها دفعها الى الاستعمار فى كل صوب ، فصادف أبناؤها أرضا واسعة وشعوبا لا حراك بها ، فقبضوا على الأعمال السياسية والاقتصادية فيها .

***

وهنا استمحت حضرة المسـيو هانوتو وقلت له : اذا كنت تحب مصلحة المسلمين ، وتعتقد أنهم راضون فى تونس ، فهل تعتقد ذلك فى أهل الجزائر ، ولماذا لا تسـأل الحكومة الفرنسـية أن ترى فى أحوال هؤلاء .

فقال : أما التونسيون فلا خلاف فى أنهم مسرورون بحالتهم ، ونحن قد دخلنا بلادهم وهى قاع صفصف فرق شملها أفراد حكموها . وأما نحن فقد تركنا للسـكان حقوقهم المذهبية ، فاحتـرمنا جوامعهم وعقائدهم وأحوالهم الشخصية ، ولم نسـألهم الا أمرا واحدا أى احترام سلطتنا السياسية ، فأدركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ، ولهذا كان النجاح عظيما فى مدة قريبة ، وأنت تعلم أن مذهبى فى الاستعمار وضع الحماية كما هو فى تونس لاضم المستعمرة الى فرنسا ، كما فعلنا فى مدغشقر بالرغم من معارضتى ذلك ، وقد رضيت به منقادا لأوامر أكثـرية دار الندوة ، ولا

انكر أنه يجب تعـديل بعض قوانين الجزائر ، وقد شرعنـا فى ذلك ، وسأكتب كثيرا فى هذا الموضوع ، لأنى ذهبت بنفسى الى تلك البلاد ، ودرست أحوالها ، وأملى ألا يمضى طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذى طلبه غيرى وشرعت حكومتنا فى انقاذه .

— قلت : انى أعـرف ما سردته لى عن تاريخ السـلطتين الدينية والسياسية فى أوربا وعن أحوال شعوب القطرين « تونس والجزائر » ولكن ذلك مستحيل فى الشرق ولا سـيما فى الحكومات الاسلامية ، والذين يقولون به من الأجانب ليسوا الا خصـوما للمسلمين ، لاعتقاد هؤلاء أن فى فصل السلطتين ضعفا ترومه أوربا لتنال بغيتها منهم .

قال هانوتو :

أنا لا أسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشـاء ، ولكن أعتقد أن أوربا لم تتقدم الا بعد تعيين حقوق السـلطتين ، وجعل الكلمة الأولى للسلطة الحاكمة ، كما أنى أعتقد أن جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع أن تخسروا فى الحروب الماضية ، وأعتقد أيضا أن صاحب السلطتين ولا سيما فى بلاد كالشرق ، يستطيع أن يجرى اصلاحات لا يقدر غيره عليها . ويعلم المسلمون أن جمع السـلطتين فى شخص واحـد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس ، وانجلتـرا من التهام الهند ، وروسيا من أخذ تركستان وغيرها الى حدود أفغانستان ، كما أنه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس ، والمملكتا اسلاميتان ، فاذن كان يستحيل توحيد سلطتهما الدينية ، واذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم أنه لا يحول دون التقدم العصرى فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون .. ؟ وبماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادكم ؟ .. فاذا قلتم : ان أوربا تحـول دون الاصلاحات ، اذن ، فلم تأخـرتم واليابان تقدمت ؟ .. وهى لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ما وصلت اليه اليوم ، فأصبحت أوربا تقدرها قدرها فى جميع مسائل الشرق الأقصى .

واذا قال لكم أولئك الكتاب اننا مقتنعون بأن أوربا وشعوب تركيا حالت دون اصلاح الولايات الواقعة فى أوربا والقريبة من أوربا كسوريا مثلا سألتكم ، هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم ؟ .. أيظن رجالكم وكتابكم أننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربى ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين ؟ .

وأنا أعرف أن أمثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ، ولكن قد حان لكم ألا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو أنها خارجة من فم أجنبى ، مادام كتابكم لا يقولونها فقط بل يكذبونها ، كأنى بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم ، فكأن ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين .

وانى أقول لك هذا بعد الذى قرأته فى جرائدكم ردا على ما كتبته ، فقد عدونى خصما لهم ، ونسوا خدماتى لهم وأنا فى منصة الوزارة الخارجية فى أيام المسألة الأرمنية ، فاذا كان هذا رأيهم فى صديق خدمهم ، فماذا يكون حكمهم على خصم جهر بعدواتهم ؟ .. ولكن فليعلم هؤلاء أنه اذا حدثت أمثال تلك الحوادث فى المستقبل فيستحيل على وزير أوربى أن يقبل مثل تلك السياسة . ولا أقول هذا من باب العداء ، بل لما نراه من تعديل أوربا على وجه عام مبادىء سياستها الخارجية مع الشعوب الشرقية ، فان الدول ستكون واحدة فى المستقبل كما ترى الآن فى مسألة الصين .

فقلت للمسيو هانوتو : وما شأنكم والشرق وأممه فكلاهما راض عن حاله ، ومفضل لها على كل سلطة أجنبية أو أوربية ، والذى ينفر الشرقى هو ظلم أوربا فى سياستها هذه ، وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لأنها عودتنا حماية الضعيف من القوى .

فقال الوزير بعبارة صريحة : ان هذه الأقوال خيالية لا تنطبق على حالة أوربا فى هذا الزمان ، فهى بعد أن كانت لا تهتم بغير قادتها ، قد

اندفعت الى الاستعمار ، ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها ، واعلم أن فرنسا مضطرة ، ما دامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعماري والتجاري ، الى الاقتداء بالدول المذكورة . وانى لأرى كتابكم وأفراد أمتكم يجهرون فى غالب الأحيان بأفكار صبيانية فيستعبدون للألمانى لنكاية الانجليزى ، وينتصرون للفرنسى على الألمانى ، ولكن أما حان لهم أن يعلموا أن الأوربيين مهما اختلفت أجناسهم ومذاهبهم من السهل اتفاقهم على الشرقيين ؟ .. لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو أغراض تلك الأمة لاصلاح شئونهم بل لمعارضة دولة ثانية ، وهى سياسة قديمة العهد لا تعتد بها أوربا اليوم . وأنت تعلم أن المانيا أكثر الدول فى أوربا استقرارا ، وأبعدها عن الاستعمار ، وهى التى اقترحت تجديد مناطق النفوذ فى الصين ، وهى التى سألت امتياز انشاء « سكة حديد » بغداد ، مما يدلكم على أن أوربا لا تسعى الا الى مصلحتها السياسية .

ثم قال لى : أنت تقول لى أن الساسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة أوربا كلها أو بعضها ، ولهذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك ، لاسيما وأن أكثر الدول تطمع فى أملاكهم ، وحضرتك أكدت ذلك فى كلامك الآن عن سياسة أوربا .

***

والمسلمون يعتقدون أيضا أن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية ، وقد أدى بهم فقدان هذه الثقة الى ألا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم ، وهم يؤيدون سياستهم هذه لما رأوه من تدخل أوربا فى أعمالهم ، ومن أفعال الموظفين غير المسلمين فى المناصب السياسية العثمانية سواء أكان فى بلاد الدولة أم فى سفارتها ، وأنت تقول لى ان فى ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون .

فهذا الذى تقوله لى اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لى بعض العثمانيين فى الآستانة وباريس ، ولكن تفنيده أمر سهل ، واليك البرهان :

لا يسعك والساسة المسلمين أن تنكروا أن بعض دول أوربا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية فى أوربا ، فان هذا حصل قولا وفعلا فى حرب القرم ، فنحن وانجلتــرا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا وألمانيا منعنا بعض دول أوربا عن نيل أغراضها فى المسألة اليونانية ، وهذه الدول الثلاث خدمت سلطنتكم أجل خدمة فى المسألة الأرمنية ، بالرغم من هياج الرأى العام الأوربى وتصريح بعض الدول بمعارضتكم ، وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن .

واذا راجعنا حــوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضــا أن فرنســا وبولونيا وغيرهما حالفت الدول العثمانية ضد دولة ثانية مسيحية ، مما يدل على أن ضــالة أوربا مصلحتها الاقتصــادية والســياسية ، ولا دخل للاعتقاد البتة فى أعمالها ، ولعمرك هل منع ألمانيا كونها مسيحية أن تحارب أوستريا وفرنسا المسيحيتين ؟ .. وألم تحارب ايطاليا أوستريا ؟ .. وهل منع فرنســا مذهبها الــكاثوليكى من أن تحــالف روســيا ومذهبها أورثوذكسى ؟ .. وهكــذا قل عن التحالف الثــلاثى بين البروتستانتى الألمانى والكاثوليكى النمسوى والايطالى ، وهذه الترنسفال دينها كدين انجلترا وأهلها من أقــرب العناصر الى الجنس السكسونى . وقد حاربها الانجليز وغرضهم سلب استقلالها .

***

كل هذه شواهد قديمة العهد وحــديثة تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق .

واني أتساهل معك وأقول ، ان بعض دول أوربا يريد لكم سوءا ، وان هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الأوربيين ، ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق ، وهى فى أوج مجدها وشامخ عزها ، أن تتحد وتوحد كلمتها ، فهل يسهل ذلك عليها اليوم ؟ .. واذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداء لمصلحة الاسلام ، لأن أوربا مسيحية ، وهو زعم باطل ، فهل كان ما ينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامى وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوربا ، ويمنعها عن انفاذ ما يتهمها به المسلمون ؟ .. وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم ؟ .. أترضى به أوستريا ولها البوسنة والرسك وهى طامعة فى غيرهما ؟ .. أم تقبله فرنسا مع أملاكها الافريقية الواسعة ؟ .. أم تؤيده انجلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ .. أم تعضده روسيا ؟ .. أليس ذلك خرقا فى الرأى من الذين ينادون بهذه السياسة ؟ .. كأنى بهم هم الذين يريدون انفاذ ما يطلبه كيمون وغيره من كتاب أوربا ، وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب أن يكتبوا كتابات أدبية بلغات الكتبة الأوربيين لتفنيد أقوالهم ولاستمالة الرأى العام الأوربى اليهم .

أما ما كان يجب عمله على رجالكم سواء كان الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا فى أوربا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على قليل من مبادئها وسياستها فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية فى بلادهم ، وأن يعملوا فى الخارج على ازالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب ، بأن يتخذوا اقدام أوروبا واجتهاد أبنائها مثالا يسيرون عليه ، وأنموذجا يعملون بموجبه ، أى كما فعل اليابانيون فى السنين الأخيرة . وأنت تعلم أن الذى نبه اليابان هو خوفها من أوربا ، وهى التى لم تتعز عن ضعفها باحتقار الأوربى وذمه والمباهاة بمجد الآباء ، ولم يقل يابانى بتحقير الأجنبى ، لأنه عنصر غريب ، أو لأنه مسيحى ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان ، بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا ، ولكن بسلاح أوربا ، أى بأن تتشبه بها فى العلم والمدنية والاقدام ، ولهذا فازت فى مطالبها ، وحالت دون فتوحات الأوربى الاقتصادية أولا

فالسياسية ثانيا .. ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتى منذ حرب القرم لما شكا مسلم من أوربا ، ولما شكا كاتب أوربى من حال الشرق وأهله ، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم فى السياسة الأوربية سواء كان فى أوربا أو فى الشرقين الأقصى والأقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية أضعاف حظوظ أعظم دولة أوربية .

***

وأرانى فى هذا الشرح قد بلغت ما قصدته من تفنيد ما يزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الىنفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن ، وقد كان يجب عليهم أن يجهروا بها خدمة لأمتهم ولوطنهم لا أن يتجاهلوها ويكذبوها .

وتقول لى : ان النهضة العلمية بدأت فى مصر ، وان بعض الأفراد أنشئوا المدارس ، وان الجناب السلطانى قد اهتم كثيرا بتوسيع نطاق المعارف فى البلاد العثمانية ، وأن أصحاب النشأة الجديدة أدركوا قصور الحكام ، وتأخر البلاد ، فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة ، والأمل وطيد بالنجاح . ولكن الطفرة محال وهذا أمر يسرنى ويشرح صدرى لأنى أرغب رغبة خالصة فى نجاح شرقكم ، ولكن يجب أن تعلم أن العبرة ليست فقط فى اقامة المدرسة بل فى وضع « البروجرامات » المدرسية ، كما أن العلم وحده لا يكفى وقد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب ، فانى لا أجهل أن كثيرين من أبناء الشرق درسوا فى أوربا ، وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا فى أوربا أيضا ، ولكننا رأينا فى اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ، ولعلنا نراها يوما لأنى أعتقد أن رجال النشأة الجديدة ينجحون نجاحا كاملا اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية ، لأن الواحد قد

يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ، ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع الا عنصرا واحدا ، وأنت تعلم أن الفرنسى يشمل الكاثوليكى والبروتستانتى والمسلم واليهودى والوثنى وغيرهم من رعايا فرنسا ، ولكن الكاثوليكى الفرنسى والأرثوذكسى الفرنسى لا يشمل كل فرنسى .

لهذا كانت السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية ، وهى التى كانت قاعدة أوربا الأولى فى سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت . والى هنا قد أجبتك على جميع ما أردت أن تعرفه منى عن رأيى فى الشرق .

ردّ الأستاذ الإمام

الرد الاول

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم فى جريدة « المؤيد » نقلا عن جريدة « الجورنال » الباريسية تتميما لبحثه السابق .

بحثه السابق وشىء من تتمته انما هو دافق من غيرته على شئون دولته ، يريد أن يدعو قومه الى التبصر فى وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم ، أو يجاورونهم فى ممالكم ، وذلك لا يتم على مذهبه الا بالبحث فى طبيعة الأمر الذى صار به المسلمون غير مسحيين ، وبه يفضل المسلمون سلطة اسلامية على سلطة فرنسية . فان أمكن تلقيح ما عليه المسلمون بالولاء الفرنسى ، وسهل الجمع بين ما وقر فى نفوسهم وبين الخضوع الأعمى لسلطان فرنسا ، وطاب الجوار فى قلوب الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام والطاعة لكل أمر يصدر من آخر فرنسى فى طبقته ، صح للدولة الفرنسية أن تمن على المسلمين بالبقاء فى الأرض والا وجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة أو تجليهم الى قارة أخرى .

ولهذا جره البحث الى النظر فى أصول دين المسلمين ، والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحى ، بل بينه وبين أديان كثيرة أشار اليها فى كلامه ، ثم الحكم فى تفضيل أحد الدينين على الآخر بآثار كل منهما فى نفوس معتقديه .

أما غايته من البحث وتناوله بيده يحرك به نيران العداوة فى قلوب الفرنسيين ليثير عزائمهم الى حرب المسلمين وليكون مسيو هانوتو للأمة

الفرنسية اليوم مثل ذلك الراهب الذى أثار تلك الحروب المعروفة (١) . فذلك أمر نكل فائدته اليه والى علمه بمكان دولته من القوة ، ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانية . ونلفت اليه ذكاء بعض شبابنا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنسية ويتجملون بآداب الأمة الفرنسية ويطربون اذا ذكرت المدنية الفرنسية .

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن فى أصل من أصول الدين ما حركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار — حظ الناظر فى أحوال الأمم وأعمال رجالها — حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم ، ويفهم ليعلم ويحكم . ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب .

أما ما جاء فى التحكك بأصــول الدين فهو الذى أغمزه بما أكتب اليوم .

يرى الناظر فى كلام مسيو هانوتو لأول وهلة أنه مقلد فى التاريخ كما هو مقلد فى العقائد ، وأنه جمع خليطا من الصور وحشرها الى ذهنه ، ثم هو سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الاسلام من الفرنسيين وهو جمهورهم .

أكثر من ذكر التمدن الآرى والتمدن السامى والتفريق بينهما ، وأن أحدهما قهر الآخر وأن التمدن الآرى هو الذى ظفر بقرينه التمدن السامى وما يشبه ذلك .

***

ان مهد التمدن الآرى ومنبت غراسه « الهند » لا يزال الى اليوم على الوثنية التى يحبها مسيو هانوتو فى أغلب أنحائه . ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقســموا الى أقسام لا يمكن الخلط

(١) يقصد بذلك الحروب الصليبية . ولعله يقصد بذلك البابا الفرنسى آربان الثانى .

بينها بل يدوم تباينها ما دامت الأرض آرضا . ومن طبقاتهم من قضى عليه بالانحطاط فى العقل والخلق والصناعة ولا يباح له أن يرتقى الى طبقة ما فوقه الى انقضاء العالم ، وهو الجمهور الأغلب منهم ، وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لأهل طبقة أخرى أن تمسه . والاعتقاد بفناء العالم ، وأنه لا يليق بالانسان أن يهتم بشئون العيش هو مبنى عقائدهم .

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامى ، وهو لم يعرفهم الا فى آخر الزمان . ولم يخالط الا قلوب القليل منهم ، كما لا يخفى على من له المام بجغرافية البلاد الهندية .

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذى وصل اليه الأوربيون حمل الى أوربا مع المهاجرين الأولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الأقطار الغربية ؟ .

ألم يخطر بباله تلك العظائم التى انتفخ بها بطن التاريخ وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجية ، وان العلم والمدنية لم ينبعا من معينها ، وانما جاءها هذا بمخالطة الأمم السامية كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الأقدمين وهم أساتذة الأوربيين الآخرين كما يزعم مسيو هانوتو ؟ .

ما هذا التمدن الآرى الذى كانت عليه أوربا عندما انتقص أطرافها المسلمون ؟ .

هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، واشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل ؟ .. نعم ! هذا هو الذى كان معروفا عند الغربيين وقتما ظهر الاسلام .

***

ماذا حمل الاسلام الى أوربا ، وها هى ذى المدنية التى زحف عليهم بها فردوها ؟ .. زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا

من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين ، نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساءفى سائر الأمم الغربية لذلك التاريخ وذهب به أبلج ناصعا يبهر أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون .

انى أكيل لمسيو هانوتو اجمالا باجمال ، والتفصيل لا يجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع الا الاعتراف به .

ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدينة الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على اطفائها عدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت فى أرضهم بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة .

يحار القارىء لكلام مسيو هانوتو فى معنى المدنية السامية التى جاء بها الاسلام وتصادم بها مع المدنية الآرية .

ولعل عنايته بالألفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ما أودعته هو الذى قصر به عن النجاح فى أعماله فى السياسة الخارجية بين أمة مثل الأمة الفرنسية التى تنقاد بذكائها الى الأذكياء . والعارف بطباع الأمم لا يعسر عليه أن يقودها الى ما يضمن لها الفوز على جيرانها ، وانما العسر كل العسر أن يوجد ذلك العارف اليوم .

***

ان الناظر فى التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الأزمان ، ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية ويخمدوا نارها .

ان صح الحكم على الأديان ، بما يشـاهد فى أحوال أهلها وقت الحـكم ، جاز لنا أن نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسـيحى والمدنية الحاضرة ، فان الانجيل بين أيدينـا نقرؤه ونفهمه ولا يغيب عنا شىء من دقائق معناه ، يأمر الانجيل أهله بالانسـلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ، ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قميصـا أن يعطوه الرداء أيضا ، واذا ضربهم الضـارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الأيسر ، وأن يفنوا بكليتهم فى الأب ، ويقضى عليهم أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى ملكوت السـموات ، وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية التى تليق برسول الهى ربانى يدعو الناس الى الانقطاع عن هذا العالم الفانى ليليقوا بالانتظام فى أهل ذلك العالم الباقى .

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجعل ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما أوصى الانجيل ، وهل رأى مثالا لذلك فى المدنية الآرية التى تآخت مع الدين المسيحى ؟ .. العيان يدلنا على أن شيئا من ذلك لم يكن . فان هذه المدنية انما هى مدنية الملك والسـلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الأعلى هو الجنيه عند قوم والليرة عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل فى شىء من ذلك .

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم فانقلبت الحال بهم ، وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك .

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الأمريكان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا الى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليسـتقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشـهورة ، وليكونوا أول من يقبـل قدميه ويديه . وهم من طهارة القلب وسـلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر فى الكتب المقدسة ، فان كانت هـذه هى المدنية الآرية التى صارعها الدين الاسلامى فأنا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته .

من الساميين الفينيقيون وهم أساتذة القوم فى الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ، ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لا تنكر أيام الرومانيين ، وما كان الغــربيون لينكروا فضــلهم فى ذلك . ومبــادىء الصناعة والعمل عند جميع الأقــوام المرتقية فى سلم الانسانية واحدة ، وانما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه فى نفوسهم ضرورات المعيشة ، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث ، وما تطبعه فيهم طبائع الأقاليم ولا زالت الأمم يأخذ بعضها من بعض فى المدنية ، لا فرق عندهم بين آرى وسامى متى مست الحاجة الى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورات الحياة ، أو استكمال شأن من شئونها . وقد أخذ الغــرب الآرى عن الشرق السامى أكثر مما يأخــذه الآن الشرق المضمحل عند الغرب المستقل ، فلم يبــق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب الا الدين ، وقد ظهر فى كلامه أن الدين السامى يراد منه التوحيد والدين الآرى يعنى به ما يقابله .

وانى أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهى أن دين التوحيد ليس دينا ساميا بل هو دين عبرانى فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ومنهم عيسى من جهة أمــه وأصحابه وأنصاره الأولون . أما بقية الساميين من عــرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة فى الكتاب المقدس وهو يعرفها ، فقد كانوا وثنيين مشبهين ولم يخالفوا فى ذلك بنى عمهم أو أعداءهم الآريين ، وقد خاض الكاتب فى تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد ، وذكر لذلك عللا وأسبابا أدته اليها سعة اطلاعه فى الفلسفة وأحوال الاجتماع الانسانى ، وسنأتى على الكلام فيها .

وقبل القاء القلم أذكر الذين يتفانون فى اجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم فى الله — على رأيه — انى ان صغرت شأن هانوتو فى معارفه التاريخية فذلك لأنه صغير فيها حقيقة ، وكثير من قومه يعرف ذلك منه ولأنه لا أمير فى العلم الا العلم والسلام .

الرد الثانى :

تحرش مسيو هانوتو بمسألتين من أمهات مسـائل الدين ، القدر والتوحيد أو التنزيه . وبعد أن خلط فى بيان وجه الأشـكال فى المسألة الأولى واختلاف الناس فيها قديما ، وانهم انقسموا الى فريقين : قائل بأن العبد مسير بقدرة الله لا عمل لارادته فى فعله ، وذاهب الى أن خالقه وهبه اختيارا يتصرف به فله ما كسب وعليـه ما اكتسب ، قال : ان الرأى الأول يحط الانسـان الى حضيض الضعف ، والثانى يرفعه الى ذروة القوة ، ثم وصل الأول بمذهب البـوذيين القائلين بفناء الموجودات فى الوجود الازلى ، والثانى بمذهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الاله بالانسان فى أوصـافه المادية ، وان الأول قعد بأهله والثانى ارتفع بمعتقديه الى مراتب الكمالات الانسـانية ! وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل .

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال : انهما تمثلان ذينك المذهبين ، أى مذهبى الناس فى القـدر ، وان الأولى ربانية ورثت ما ترك الآريون ، والثانية بشرية أخذت ما ترك الساميون ، وان الأولى ترقى بالانسـان الى المقام الالهى ، والأخـرى تنزل به الى أسفل درك حيوانى ، ويظهر ميل كل من الدينين ظهـورا بينا فى الأصل الذى بنى عليه كل منهما ، فأصل الأول هو ايجاد الاله الأب للاله الابن حتى كان الها بشرا ، واتصال الالهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه الى حد ينقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان ، ثم رجع بعد هذا الى الخلط بين الدينين وردهما الى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما الى آخر ما أطال به على غير جدوى .

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش فى الفكر وخلل فى المقال يشـبه ما جاء به هـذا الكاتب ، دع الحكم فى ذلك لمن له أدنى المام بمذاهب الأمم وآرائهم .

لم يختص الكلام فى القدر بملة من الملل مشبهين أو منزهين ، ولا دخل للتشبيه والتنزيه فى كل شىء من ذلك بل كان منشأ الكلام فى ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شىء وشمول قدرته لكل ممكن .

وقد عظم الخلاف فى المسألة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة فى رأى مسيو هانوتو ، وبدا النزاع بينهم قبل الاسلام واستمر الى هذه الأيام . ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — اتباع القديس توما (١) — أو الدومينيكيين وهم جبرية وأشياع « لويولا » وهم قدرية واختيارية ، ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامى كما يزعم ، بل لم تنبت أصوله ولم تتشعب فروعه الا بين الآريين ، ثم انتقلت عدواه الى غيرهم .

هل سمعت بيهودى استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر ؟

هل سمعت بأحد من الفينيقيين « وقد وصلوا بزوراقهم ذات المجاذيف الى جزائر بريطانيا » انه كان ينام ويتلذذ بالأحلام اعتمادا على ما يسوقه اليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك فى الأديار وبين الرهبان وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكلين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا فى زمن من الأزمان ، وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار .

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادىء الفلسفة — ذلك المذهب الذى يبتدئون كتب الفلسفة بابطاله — وهو مذهب القائلين ان الأشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ولا يحتاج الممكن فى وجوده الى سبب . أليس هذا أدخل

---

(١) القديس توما الاكوينى راهب دومينيكانى عاش فى الفترة من ١٢٢٥ الى ١٢٧٤ م . وهو الذى قال بأن الفلسفة لا تتعارض وتعاليم الدين المسيحى . وقد كان الاكوينى حجة فى اللاهوت والفلسفة . وجدير بالذكر أن اطلع على آراء ابن سينا ، والامام الغزالى ، وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية . ومن مؤلفاته العديدة : « الخلاصة اللاهوتية » و « الخلاصة ضد الامم » و « مدينة الله » .

فى باب الجبرية من اسناد كل أمر الى خالق الكــون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآرى الى منازل الرفعة ومكانات الشرف .

***

جاء القرآن الشريف ، وهو الكتاب المنزل بالاســلام ، يعيب على أهل الجبر رأيهم ، وينكر عليهم قولهم « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » — بقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » وأثبت الكسب والاختيار فى نحو أربع وستين آية . وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فانمــا جاء فى تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما فى آية « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » الخ ونحوها .

والعاقل يرى الفرق الجلى بين مسألة اختيار العبد فى أفعاله وبين أثر القدرة الالهية فى أخلاق الأمم أو فى تغــريز الغرائز مثلا . فاختيار العبد فى أفعاله مما يقر به الوجدان ولا ينكره الا من جهل نفسه ، لكن ما عليه الأمم من الاختلاف فى الطبائع والغرائز والسجايا ليس لأحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والأرض وما بينهما .

وجاء النبى صلى الله عليه وســلم فى عمله وقوله بما يؤيد ذلك ، فكان العامل الذى لا يكل ، والدائب الذى لا يمل ، والساهر الذى لا ينام ، والجاد الذى لم يبلغ شأوه أحد من الأنام ، هل نقل عنه انه اتكأ يوما على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر فى اتمام دعــوته قائلا : الذى كفل لى النصر يكفينى التعب ، وضمان الله لاعلاء كلمة دينه تغنينى عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصــادقة الا نشاطا ، ولا تجد العصمة الالهية من نفسه الا حزما واحتياطا .

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الأولين وكانوا أكمل الناس ايمانا باحاطة علم الله وشمول قدرته وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتى العقل والاختيار ، وكانوا أسوة فى السعى ومثلا فى الدأب والكسب حتى كان من آثارهم فى نشر الاسلام ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله .

هذه هى العقيدة السامية أو الدعوة المحمـدية أو المدنية الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة فى قاصـية من الأرض ، لم يتلمظوا بشىء من نعيم الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغا مكنهم من التلطف بالأمم حتى وقفوا على ما كان خفيا لديها ، وكشفوا ما كان مستورا عنـدها . واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضـله على الأوربيين بعد عـدة قرون من البعثة النبوية .

ولكن وا أسـفاه ! ! نتأت رءوس بين المسـلمين ، كأنهـا رءوس الشياطين واحتملت غثاء من قمش الآريين ، وقذفت به فى الأرض الطاهرة فتدنس به أديمها ، وانتشر قذره ، وعظم ضرره .

***

جاء الموالى من عجم الفرس والرومان ولبسوا لباس الاسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق وأحدثوا فى الدين بدعة الجدل فى العقائد ، وخالفوا الله ورسوله فى النهى عن الخوض فى القدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام ، حتى كان ما كان من تفرقهم شيعا والله يقول لنبيه : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقــذفها الحق ، ويطردها العقــل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التوميين بين النصــارى . وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار (١) ، وهو مذهب الجد والعمل وصدق الايمان ، وأخذه عن المســلمين فى أخريات الأيام أهــل النظــر من النصرانية مثل « بوســويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الأعظم منهم .

ولكن لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم ، وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عــدة قرون ، فبثوا فيهم أوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لا على أنها عقائد ولكنها وســاوس قد تملك الجاهل وتربك العاقل اذا لم يغلبها بعوامــل الدين الصحيح ، فنشأ الكسل بين المسلمين ، بفشو الجهل بأصــول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الاعليــاء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم فى كل أمة .

وهذا الضرب من المتصوفة أيضا من حسنات الآريين ، فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقى فيهم من عقائدهم الأولى .

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر الا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجرا يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطغام .

أما لو رجــع المســلمون الى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضــهم ، واستنبتوا أرضهم واستغزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من

---

(١) اشتد النزاع بين طائفتى القدرية والمعتزلة أيام الخليفة المأمون العباسى وذلك فى بداية القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) . ولقد قاوم احمد بن حنبل (٧٨٠ — ٨٥٥) (طائفة المعتزلة التى كان على راسها الوزير احمد بن ابى دؤاد فسجنه الخليفة المأمون وأفرج عنه الخليفة المتوكل العباسى ، ولقــداتصف ابن حنبل بشدة تمسكه بالتقاليــد القديمة وكتابه يسمى « المسند » وهو يشتمل على ثلاثين الف حديث .

قوة ، واعتمدوا فى نجاح أعمالهم على معونة القدر ، وأيقنوا فى صولتهم علما أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ما ينال القوى من الضعيف ، والعزيز من الذليل ، ولانقلب جنونهم لدى هانوتو عقلا ، وتحول هذيانهم حكمة وعلما .

هذا ما يتعلق برأيه الضئيل فى مسألة القدر عند المسلمين .

والآن آتى على آخر القول لكسر شرة هانوتو فى تهجمه على الاسلام ، وما نعنى بالكلام فيه هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد « الاعتقاد بتجسد الالوهية » ونبدأ بالكلام فى الثانى ونختم بالحديث عن الأول :

ان كان مسيو هانوتو قرأ شيئا فى أحوال الأمم ونشأة العقائد ، وعقله يعلم أن الوثنية وتوهم السلطان الالهى ظاهران فى بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على أبواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها ، وكانت لا تزال دليلا على انحطاط عقول أهلها مع تفاوت فى درجات ذلك الانحطاط ، تبتدىء من وثنيى أفريقيا وتنتهى الى بوذيى الصين وبرهيمى الهند .

***

كلما ارتقى الانسان فى العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، ونفذ عقله فى أسرار الكون ، تمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلى له الوجود الأعلى على تفاوت كذلك فى درجات الظهور والانجلاء ، تنتهى الى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذى يظنه « مسيو هانوتو » وأمثاله ، لأن ما لا حد له محال أن تحيط بوجوده الحدود .

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم ، نشئوا وثنيين ولا زالت الوثنية ترق وترث بارتقائهم فى العلوم ، وبحث فلاسفتهم فى طبائع الكائنات حتى انتهوا وهم فى ذرى مدينتهم الى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المــادة . وقف فيثاغورس على عتبة التقديس وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو مجاهدين فى كشف الغمة عن عيون شــعوبهم باذلين الوســع فى محو ما غشى نفوســهم من ظلمات الوثنية الأولى ، ومن قرأ جمهورية أفلاطون التى نقلت الى العربية أيام المأمون تحت اسم « المدنية الفاضلة » علم كيف كان يقارع أفلاطون ما بقى من آثار الوثنية من الآراء السخيفة والعادات الرديئة التى كانت تحول بين الأمة اليونانية وما ينبغى لها من الفضائل التى كان يطمع الفيلسوف أن تكون عليها .

وبعد أن أوصلهم العلم الى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه الى الجهل ، بل بقيت شمس مدينتهم تشرق فى العالم قرونا متعددة وكانت أشد بهاء وأبهر سطوعا .

***

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيــد ، غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الأولى وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثارا منهم بشرف العقيدة على من دونهم .

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك ، تقف بصاحبها عند الوسائط ، وقوة العقل ونفوذ البصيرة ، وسعة العلم تصــعد بأهلها الى مشهد الوجود الأعلى وتشرق بهم من هنــاك على العالم بأسره ، فيرون عظيمه وحقيره سواء فى النسبة الى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة — الفاضل والمفضول ، والفروع والأصول ، وما ظهر للأبصار وما نفذت اليه

العقول — كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكيمة ، وتمت بها النعمة ، فأى مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهدا على الكون بجملته ما فصل منه فى فهمه ، وما أجمل فى كليات علمه ، يحكم عليه بأمر مربوب لرب واحد هو رب العالمين ، وأن لا سلطان لشىء من هذا جميعه على نفسه لا فى الايجاد ولا فى الامداد ، بل هو وحده يمــكنه بما سن له الشرع الالهى أن يصل بنفسه الى تلك الحضرة وأن يستمد منها المعونة فى كل شئونه .

ينقسم أهل التشبيه الى قسمين : أحــدهما من يعتقد الالوهية فى بعض الموجودات المشهورة ويقف عندما يعتــقد منها والآخر يعتقد بأن بارىء الكون يظهر فى بعضها .

أما الأولــون فهم الذين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بحقــائق الأكوان ، فاذا ظهــرت عليهم آثار قوة من القوى أو ســلطة حيوان من الحيوانات ظنــوا ما ظهر المنفرد بالقــدرة عليهم ، وأنهم اليه يرجعون فى جميع أمورهم ، فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ما شاءوا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ، ولا يزالون حيارى فى شئون حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ، ثم هم يقيسون معبــوداتهم بأنفسهم لأنها ليست بأبعد منهم فى النوع أو الجنس ويقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم ، يسارعون فى ارضائها بما يعن لهم وكما تشرعه لهم أهواؤهم . ومن ذلك كانت ترتكب القبائح فى هياكل الآلهة وتنتهك حرمات الفضائل فى محاريبها وتفترس الذبائح الانسانية بين يدى التماثيل الحجرية ، وأى درك ينحط اليه الانسان أنزل من هذا ، وأمر ذلك معروف فى التاريخ ولا تزال مشاهده الى اليوم معروفة .

أما الآخرون فهم أرقى درجــة من أولئك فى الادراك ولكن ماذا أصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا اذا فاقهم انسان فى عقل أو شجاعة أو صدر منه ما لا يألفون من الأعمال أو ظهر بما لا يعرفون من

الأحوال ظنوه مظهرا للوجود الالهى فدانوا لسلطانه ، واستكانوا لقهره ، وأخذوا أنفسهم بالخضوع لارادته فسلبهم كل ما كانوا يملكونه من عقل وارادة وعزم ، وحق عليهم الصغار ما داموا على تلك العقيدة .

وقد سهل هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة طمعا فى استعبادهم . وكم قاست الأمم من الرزايا التى جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة .

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم المعتقدون بالوسائط . ما قدروا الله حق قدره فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم فظنوا أنه فى ملكوته ، كملك فى جبروته ، يصطفى لنفسه مدبرين من خلقه ، ويستصنع عمالا للتصرف فى شئون عباده ، فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلفى الى الله ، أو صدر منه ما يظنونه دليلا على أنه من المقربين اليه رفعوه الى تلك المنزلة — منزلة الاصطفاء للتصرف فى الكون ، فاتخذوه شفيعا لديه يلجئون اليه فى مهمات أعمالهم ويستجدون منه المعونة بماله من الدالة على ربه . واذا سئلوا عما يفعلون وما به يدينون ، قالوا « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » .

ماذا أصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا ؟ .. استعبدوا للسادن والكاهن والزعماء ووارثيهم واستسلموا لهم فى جميع شئونهم ، فكانت علومهم من أوهامهم ، وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم ، ينكرون الأوليات من المعلومات ، اذا توهموا أنها تخالف تلك الموهومات التى تلقوها من زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل العمل اتكالا على ما يستمدونه منهم ، ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته الانسانية من بلايا هذه العقائد ، والعيان يؤيده فى كثير من الأمم فى الشرق والغرب الى اليوم .

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها ، لاينكرها مطلع على مبادىء العلوم الصحيحة بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشئوا فى جوها الفاسد .

أما زعم هانوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقى بالأفراد فى سلم الفضائل طمعا فى نيل مرتبة الالوهية ، فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم . ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم أنهم كانوا يسعون فى كسب الفضائل من طرق التوصل الى مقام الألوهية ، ولا أن الألوهية البشرية تركت فيهم أثرا صالحا بل لم تورثهم الا تلك الرذائل التى قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها . أما السعى الى الفضائل فكان للتقرب لأربابها كما هو معلوم .

أما حكمة على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية .. فذلك أدع الكلام فيه الى المسيحيين أنفسهم . ولكنى أقول : ان المسيحية بذلت وسعها فى بداية أمرها لتطهير الأرض من الوثنية التى كان الناس عليها فى عهدها ، وجاهدت من تلوث بعقائدها من اليهود والرومانيين ، وانبث رجالها بين الوثنيين يدعونهم الى الاله الواحد ، وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق فى فهم كلامهم ، ولم تظهر آثار التشبيه فيها الا بعد قرون من نشأتها ، وتاريخ الامبراطور قسطنطين (١) معروف عند أهل التاريخ وغيرهم ولا حاجة الى تفصيل ما كان منه .

ثم لما امتد الغلو فى التشبيه ، ظهرت المظالم ، وعظمت المغارم ، واختفى العلم ، وخسىء العقل ، وتهدمت أركان النظام ، واستشرى الفساد فى الأمم النصرانية ، حتى ظهر الاصلاح وقضى على ما سبقه ، واستقامت أوربا فى طريقها المعروفة اليوم ، وقد أشرنا الى شىء من أسباب ذلك .

---

(١) الامبراطور قسطنطين امبراطور الرومان منذ عام ٣٠٦ م . أول من اعترف بالدين المسيحى كدين قائم مثل باقى الديانات الوثنية وغير الوثنية . ويقال ان سبب ذلك الاعتراف انه وهو يشق طريقه من غرب أوربا الى العرش الامبراطورى ، ليقضى على منافسه على العرش الامبراطورى واسمه ماكستيوس ، شاهد علامة الصليب فى السماء ومكتوب عليها هذه الجملة : « بهذه العلامة ستنتصر » . لذلك أصدر « مرسوم ميلان » عام ٣١٣ م باعترافه بهذه الديانة .ولقد نقل عاصمة الامبراطورية ، من روما الى بيزنطة لتكون عاصمة مسيحية خالصة . وقد أطلق عليها القسطنطينية نسبة اليه .

لم نسمع أحدا من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون الها بشرا — كما يؤخذ من عبارته — ولم نر أثرا لأحدهم يدل على أنه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذى ذكره . ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لا مجال للعقل فيها ، فلا مكنة له فى أن يحتذيها . وقد قامت طوائف منهم فى أزمان مختلفة تصرح بأن هناك فرقا بين ما لا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل ، وذهبت الى أن المسيح لم يكن الا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان وحملوا الابن على المصطفى « المختار » والأب على الرب الرحيم . وأعرف أن بعض طوائف البروتستانت اليوم ، وان كانت قليلة العدد ، تذهب الى تأويل الكلمة بالعلم ، وروح القدس بالحياة ، وقد لاقيت بعضهم فى بعض أسفارى وأكد لى أن لهم شيعة تدين بذلك .

وهل كانت المسيحية فى سالف الأزمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم .

انى أرفع أدبا من أن أطعن فى عقائد المسيحية فى جريدة ، وقد أمرت أن أجادل بالتى هى أحسن . ولكنى أرجع الى الكلام فى الآثار التى عنى هانوتو باتخاذها دليلا .

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد ، وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وابراهيم الى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ، ولم ينكر أن فى اليهود وفى المسيحيين خصوصا أهل تنزيه ، وذكر أن منهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه .

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناوأة الاسلام وكانت أكثر عددا وأوفر عدة وأعظم قوة وأشد بأسا ، فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه الى القلوب ، فدخـــل الناس فيه أفواجا من كل ملة ، فأعتقت الهمم ، وافتكت العزائم من أسرها ، وأخذ كل يطلب من الكمال ما يعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجـــود ، وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنــزيه يشرفون من شرفات الايمان على أسرار الوجـــود ، ومزقوا تلك الحجب والأوهام ، واتصـــلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين . ولم يكد أهل الملة يســـتريحون من الشغب الذى هبت ريحه بينهم حتى سطعت أنوار القلم فيهم ، ولم يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه الا علوه ، ولم يبق متـــروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان وجلوا صداه وأبرزوه للأنظار .

هذا أثر الاسلام وهو دين التنزيه ، ولم يكد ينتهى القرن الثانى من ظهـــوره حتى جال المســـلمون فى علوم الســـموات والأرض وصححوا الاغاليط ، ونقحوا القواعد ، وحرروا الأصول . وفى مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ، ومســـحوا الأرض وأتوا فى ذلك بما هو معهود لأهل العلم فى ديارنا وديار مسيو هانوتو .

انى أكتفى فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر فى الأمم الغربية اليـــوم : أقامت النصرانية فى الأرض ستة عشر قـــرنا ولم تأت بفلكى واحد ، وأخذ المسلمون يبحثون فى هـــذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين ، ومع هذا لا يعد ذلك طعنا فى أصول الديانة المسيحية وانما هو طعن فى تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له .

***

يظن هانوتو أن الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ولكنه وهم فى ذلك ، فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه

وحده بلا واسطة تبيعه رضاءه — قضى الاسـلام بألا يكون للكون الا قاهر واحد يدين له بالعبـودية كل مخلوق ، وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقى اليهما — مقام الالوهية التى تفـرد بها ، ومقام النبوة التى اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها ، وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهو بين يدى الانسان ، ويناله استعداده ، لا يحول دون حجاب الا ما كان من تقصيره فى عمله أو قصوره فى نظره .

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ، ولن تستطيع الى التقدم سبيلا . هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه ؛ وهذا هو معنى الاسلام والاستسلام الذى أخطأ فى فهمه مسيو هانوتو ، فهل بقى الانسان مع هذا المعنى من الاسلام فى درك من الحيوانية وفى هجرة عن التوسل بالأسباب الى مسبباتها فى كسب الفضائل والكمالات ؟

يجب على الباحث فى الاسلام أن يطلبه فى كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره ، والاسلام اسلام والمسلمون مسلمون .

***

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم فى عقائدهم التشبيه ، وفى عوائدهم التمـويه ، وممن تعلمـوا الاختراس ، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون والله من ورائهم محيط .

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى سقطوا فى مساقطهم ، وطارحوهم الأوهام حتى أنجزوا الى مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وما عليهم .

حدثت فى الدين بدع أكلت الفضائل ، وحصدت العقائل ، وترامت بالناس الى حيث يصب عليهم ما استفرغه « كيمون » .

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم ، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم ، لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله اليه فى تنزيله وعلى لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح ، شرا عليهما مما يخشون من دين شوهته البدع .

***

يرى كيمون أن يخلى وجـه الأرض من الاسـلام والمسـلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو ، لولا ما يقف فى طـريق ذلك من كثرة عـدد المسلمين ، وبئسما اختارا لسياسة بلادهما أن يظهرا ضغنهما ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما .

ألا فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الاسلام ان طالت به غيبة ، فله أوبة ، وان صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانجليز مثل اسحق تيلر وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة :

« انه يمتد فى افريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره » .

ويأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم ، وقال « انه يختار اسلاما لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر »

ثم هو لا يزال ينتشر فى الصين وغيره من أطراف آسيا ، وسترشده الحوادث الى طريق الرجوع الى طهارته ، وتنثنى به الملمات الى ما كان عليه لأول نشأته ، وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ما ترجو ان شاء الله .

لو أسلمت الأمة الفرنسية بأسرها وفى مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهده فى الجزائر ومدغشقر ، هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها وألا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا ، فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجد فى اهلاكهم والدأب فى اخفائهم .

ان العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هى التى تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضاء عنه ، ولكن هانوتو وأترابه من ساسة الفرنسيين لا يعرفون شيئا من هذه الأركان الثلاثة ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون فلينتظروا انا معهم من المنتظرين .

هانوتو والاسلام

رد الامام الثانى على هانوتو وفيه بحث الجامعة الاسلامية :

ألقت الى المصادفة نسختين من احدى الجرائد المشهورة فى القطر المصرى جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة فى الاسلام .

ولم أشك فى أن كثيرا مما جاء فى هذا الحديث صادر عن رأى مسيو هانوتو ، لأنه لا يصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوربا وكثير من أحوال الشرق ، ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظر فيه ، وتركه يمر بلا مناقشة معه فى بعض ما تضمنه يعد ظلما وجورا عليه ، خصوصا ونسبة القول اليه مما يدع فى أذهان الناس أثرا لا يحسن السكوت عنه .

وقد جاء فى كلامه ما يدل على انه قد أصيب بشىء من سوء الفهم فى أحوال المسلمين ، وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم . وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المقصد الواحد كما ذكر حضرته فى مقال له سابق . فلا يليق بذى غيرة على الحق ألا يوفيه من الاعتبار ما يستحق ، وأرجو أن يترجم ما أكتبه فى جريدة « المؤيد » الفرنسية وأن يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا .

ان كان المسلمون اليوم ينتفعون بشىء ويعتبرون بمثال . لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء فى كلام مسيو هانوتو . فقد أرشدهم الى عيوب فيهم لا يسعهم انكارها ، وهداهم الى مقاصد لطلاب الاستعمار فى

ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها ، وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخيال ، وعقد الآمال بانصاف الأمم تلمس للمحال ، وما على المتهم بحماية ذماره ، وطالب الطهر من عاره ، الا أن يدركهم ويمسل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوقهم في القوة أو يكون مثلهم ، فيتعارض في المنافع معهم معارضة المالك مع المالك ، لا أن يتسلى بالأعاليل ، ويلهو بالأضاليل ، ويقنع بالأماني ، ويكتفي من العمل بالصوت الجهوري واللفظ الطلي ، وهو من روح قائله خلي ، حتى اذا دهموه وهو في غفلتــه وأخذوه في نومه أو يقظتــه ، بسط يده يلتمس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليه سيب العدل عنهم ، فهذا عمل الجاهل الأحمق ، وهو بالذلة والاستعباد أحق .

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبي منه ، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد قال لخالد ابن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة : « حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف، والرمح بالرمح »

ولا يخفى أن كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهي جلاد ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهي سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة .

فالظافر في ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد ، فاذا قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسهل على كل منهما أن يرتفق ، والا استحال الاتفاق ، واستبد القوى بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله في عالم الأحياء .

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا فى قوله : « العدل تكافؤ القوى »

صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد أن كانت لا تشتغل الا بما يجرى فيها ، اندفعت الى الاستعمار ولا يردها عنه الا قوة الأمم التى تأبى الاستعمار فيها . وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت فى المدنية ، وما أصلحت من شئونها الداخلية ، وما أعدت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد آذنت أوربا بقوتها ، وحملتها على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها ببرهان القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الأوربيين ، وهو قول حق ، وكان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله فى كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد دعته الآية الكريمة الى الاعداد ، وطالبته أن يبلغ منه حد المستطاع ، ولا حد لما تستطيعه أمة اذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له ، وأطلقت له القوة ، وهى كل ما يقوى به خصم على خصم ، ويقتدر به على حماية نفسه ، وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القوى ما حفظ به الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لهيبته كل من المتنافسين عند حده ، حتى يستقر السلام بينهم ، وتشمل الطمأنينة نفوسهم .

وقد تألفت قوى الأمم الأوربية من عناصر هى : العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين فى جملة عناصر القوة لأن مسيو هانوتو لا ينكر أن أوربا تعتمد على الدين فى سياسة الاستعمار ، وان المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها فى اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه اليها ، وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ما ينقض به ذلك السلطان متى أظلهم ، وفى فتح المغالق التى لا يستطيع السلاح وحده أن يفتحها ، وتمهيد السبل التى لا يمكن لساعد الجندى وحده أن يمهدها . وهو من الأمور المسلمة التى

لا يجادل فيها عارف مثل هانوتو ، فلا حاجة للاطالة فى بيانه غير أنى أذكر قصة كنت شاهدتها لا بأس بذكرها فى هذا المقام :

تعلم أحد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا فى بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنسية فى تلك البلاد ، وأخذ عن أساتذته كثيرا من آدابهم ، وطالع عددا من مؤلفات كتابهم ، وامتلأ قلبه بحب فرنسا ، واستقر فى ذهنه أنها منبع نور العلم والحرية ، وأنها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد ، ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنسيين ومؤلفات بعض السياسيين ، فعظم عنده الاعتقاد بأن هذه الأمة الجليلة انما يهمها فى سياستها أن تنشر المعارف فى العالم لتهذيب العقول ، وتكميل النفوس ، لتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر ، ورأى أن من الزلفى عند الحكومة الفرنسية أن يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس فى جبل لبنان ، يبنى التعليم فيها على تلك الأصول السابقة ، فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ ، واتصل بأحد أذكياء السوريين الذين طاب لهم المقام فى البلاد الفرنسية وطلب منه أن يكون وسيلته فى نيل مايرغبه من معونة الحكومة ، فسعى الذكى سعيه ، ثم عاد الى صاحبه وقال ان ما تخيلته ضرب من الوسواس وان الحكومة الفرنسية وان كانت تطرد الجزويت من بلادها ، وتنازع الكنيسة فى سلطتها ، لكن سياستها فى الخارج دينية محضة ، ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها للجزويت واعانتها لهم بالمال والقوة فى بلادك .

فان كنت تريد انشاء مدارس دينية فى بلاد لبنان كان أملك فى المساعدة قريبا ، والا فارجع واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالخيبة بعد ما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ، ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده الا من رحمه من أصدقائنا اذ ذاك ، وكان لى حظ فى مساعدته . كما كنت شاهدا الحديث الذى رويته .

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت فى تحصيل هذه العناصر التى سبق ذكرها ، أو تقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم ، كان مخالفا لكتابة

ولقول الصديق رضى الله عنه ، ومستحقا للوم مسيو هانوتو ، ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الأوربيين الى يوم القيامة .

بقى على الكلام مع هذا الوزير فى أمرين : الأول فيما فهمه من شأن المسلمين فى هذه الأيام ، وما يسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة ، وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد . والأمر الثانى سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الأوربية ، بل بالمسيحيين أجمع ، حتى وصل فقد الثقة بهم الى ألا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا فى عمل من أعماله ، وان أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث ، وغيره .

***

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين ، وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد فى جميع البلاد الاسلامية :

أؤكد لمسيو هانوتو أن هذه الدعوة لم يوجد لها أثر الى اليوم فى بلد من بلاد المسلمين ، ولو خطا خطوة الى معرفة أحوالهم على ماهى عليه ، لما خطر بباله أن يشير الى هذه الدعوة فضلا عن أن يبنى عليها حكما ، وان ما علق بالأوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيى الشرق ثم انعكاس ذلك فى أذهان سياسيى الغرب ، وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل فى تعظيم ما توهم فيها .

وانى أعرض الحقيقة كما هى لا يغشاها ستار من تمويه ولا غطاء من تلبيس ، وأرجو أن يكون فى هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم فى كلامهم عن الدين وما يرد أمثال صاحب الجريدة التى نشرت حديثه الى رشدهم حتى يتقوا الله فى أنفسهم وأهل بلادهم ، ولا يتخذ بعضهم من السلم حربا ولا من السكون شغبا .

لا أنكر أن طائفا من الدين طاف فى هذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين فى أقطار مختلفة من الأرض ، وأن نسمة من نفس الرحمة مرت بأنفس قليلة من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم ، وأثارت هممهم الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين ، وفيما صاروا اليه ، وأن منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام ، ومنهم من ينشر رأيه فى كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك . ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون ما لا يعلـمون ، ويهرفون بما لا يعـرفون ولا كلام لنا فى هذر المقلدين ، وانما كلامنا فيما يرمى اليه غرض أولئك الناظرين .

ظهر الاسلام لا روحيا مجردا ، ولا جسـدانيا جامدا ، بل انسانيا وسطا بين ذلك ، آخذا من كل القبيلين بنصيب ، فتوفر له ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية ، ثم لم يكن من أصوله « أن يدع ما لقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب « قيصر » على ماله ويأخذ على يده فى عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذى ذكرنا فهدى ضالا ، وألان قاسيا ، وهذب خشنا ، وعلم جاهلا ، ونبه خاملا ، وأثار الى العمل كسلا ، وأقدر عليه وكلا ، وأصلح من الخلق فاسدا ، وروج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا ، ورأب متصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن للأمم التى دخلت فيه نظاما امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظاما للملك . وظهرت به آثار النعمة عليهم فى جميع شئونهم ، ولم يفت العلم حظ من عنايته . بل كان قائده فى جميع وجوه سيره ، فان شاء قائل أن يقول : ان الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة فى البيت ، لم يسعه أن ينكر أنه أوجب عليهم السعى الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، وأوجب عليهم أن يحسنوا فيه ، وأباح لهم الملك ، وفرض عليهم أن يحسنوا الملكة ، وما ظنك بدين

يقول خليفته الثانى وهو فى المدينة من بلاد العرب « لو أن سخلة بوادى الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول الخليفة الرابع : « أقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشـاركهم فى مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم فى خشونة العيش ؟ أى خشـونته » يريد بذلك أن يساوى المساكين فى العيش ليكون قدوة الأغنياء فى الاحسان وأسوة الفقراء فى حسن الصبر .

هكذا كان الاسلام مهمازا للمسلمين يحثهم الى جـلائل الأعمال ، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به فى استغراق الأحوال وتقويم الأفكار ، وعاطفا يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضيتهم الأرض سادة لها وقادة لسكانها ، وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم .

أفبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى ما رضيه هـذا المرشد الحكيم ويمقت ما مقته ؟ أيدهشه أن يرى المسلم يهزأ بكل ما لم يعتقده سائغا فى دينه ، وان كان فيه ملك الأرض أو ملكوت السـموات ، بعد ما شهد المسلم من أثر نعمة الله عليه فى هذا الدين ما شهد ؟ لا عجب فى ذلك فانه نتيجة ضرورية ، ينساق اليها الأمر بنفسـه بحكم سـنة الله فى خلقه .

وا أسفاه ! .. لم يبق للمسلم من الدين الا هذه الثقة فيه ، أما الدين نفسه فقد انقلب فى عقل المسلم وضعه ، وتغير فى مداركه طبعه ، وتبدلت فى فهمه حقيقته ، وانطمست فى نظره طريقته ، وحق فيه قول على كرم الله وجه : « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا » .

لا أبحث اليوم فى الأسباب التى وصلت بالدين فى نفس المسلم الى ما ذكرت ، ولكن أقول ولا أخشى منكرا لما أقول : قد دخل على المسلم فى دينه ما ليس منه ، وتسرب فى عقائده من حيث لا يشعر ما لا يتصل بأصلها بل ما يهدم قواعدها ويأتى على أساسها . عرضت البدع فى العقائد

والأعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها فى أعماله ، وعم شؤمها جميع أحواله .

***

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » أو لم يصح ، فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الأولين من المسلمين يحقق صحة ما حواه ، فالرجل والمرأة سواء فى الخطاب التكليفى ، وكانا سواء فى علم ما يجب عليهما من فرائض الاسلام ، وخصـال الايمان ، وفى طلب العلم ما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما ، وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف فى كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده ، حتى لم يبق باب من أبواب العلم الا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان . ضل المسلم بعد ذلك فى معنى العلم ، فظن الرجل أن غاية ما يفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم فى صورة أدائها ، أما ما يتعلق بسر الاخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لا يخطر له ببال الا القليل النادر ، أما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات وثمرة الأعمال الصالحات فهو مع أنه أهم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمته ، ولا تنصرف نحوه ارادة ، اللهم الا من أشخاص قلائل منثورين فى أطراف الأرض لا ترقى بهم أمة ، ولا تسمو بهم كلمة ، أما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا الى فريقين :

الأول من يظن أنه وارث علـوم الدين والقائم بحفظـها ، وقد قل أفراده فى معظم البلاد الاسلامية ، ولم يبق منه الا رسوم لا يكاد يدركها نظر الناظر ، والمشتغلون منهم فى بعض البلاد كمصر والآستانة فانما حظ الذى منهم وقليل ما هو ، أن ينظر فى كتب مخصوصـة عينها له الزمان وضعف العرفان ، ويفهمها بمعنى أن يثق بأن هـذا اللفظ دال على ذاك

المعنى ، ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم ، سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم ، فكان مثلهم مثل من ورث سلاحا ، فكان همه أن ينظر اليه ويملأ عينيه منه ، ولا يمد يده اليه يستعمله أو يزيل الصدأ عنه ، فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسـده الخبث . ويزعمون أن الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ، ومن رأى هؤلاء أن لا شأن لهم مع العامة ، ولا يجب عليهم أن يأمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر ، وقد ارتكبوا بذلك خطأ فى فهم دينهم لا يساويه فى سوء عاقبته خطأ ، وللكثير منهم بل الأغلب من سوء الفهم فى الدين ما لا حاجة الى عده ، ولا يخفى أن ما يحصله هذا الفريق فى العلم لا يظهر له أدنى أثر فى صلاح الأمة كما هو مشهود .

والفريق الثانى من يهيئه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل ، وأفراد هذا الفريق ، ان كثروا أو قلوا ، يحصلون مبادىء العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ، ثم يحصل كل واحد ما به ينال المنصب الذى يعده له والده ، على أن ما يحصل اما لفظ يحفظ أو خيال يخزن ، والمدار على الوصول الى ورقة الشهادة . ومن هؤلاء من يذهبون الى أوربا لاستكمال التربية فيها ولا غاية لهم سوى هذه الغاية ، فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها ، وحصر همه على العمل فيها ، ومن لم يجد وقف على الأبواب ينتظرها ، فاذا مل الانتظار أو انقضى زمن العمل وجدته فى مقهى أو ملهى يسرف فى أوقاته ويفسد فى أدواته ، والصالحون منهم ، وقليل ما هم ، لا يهمهم شأن العامة شقيت أو سعدت ، هلكت أو قامت ، فأى أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر فى الأمة ، واستثنى منهم شواذ فى كل بلد على ضعفهم يرجى أن ينمو عددهم وتجنى الأمم ثمار أعمالهم .

وهذا شأن الرجال مع العلم .

أما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم ما يجب عليهن فى دينهن أو دنياهن بستار لا يدرى متى يرفع ، ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة أو

يؤدين فريضة سوى الصوم ، وما يحافظن عليه من الفقه فانما هو بحكم العادة ، وحارس الحيـاء ، وقليل جـدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام ، وحشو أذهانهن بالخـرافات ، وملاك أحاديثهن الترهات ، اللهم الا قليلات منهن لا تستغرق الدقيقة عدهن ، وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعده الجنة ويمنيه السعادة .

***

أخطأ المسلم فى فهم معنى التوكل والقدر فمال الى الكسل ، وقعد عن العمل . ووكل الأمر الى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ، ويظن أنه بذلك يرضى ربه ويوافى رغائب دينه .

أخطأ المسلم فى فهم ما ورد فى دينه من أن المسلمين خير الأمم ، وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر ، فظن أن الخير ملازم لعنوان المسلم ، وأن رفعة الشأن تابعة للفظه وان لم يتحقق شيء من معناه ، فان أصابته مصيبة أو حلت به رزية تسلى بالقضاء ، وانتظر ما يأتى به الغيب ، بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارىء ، أو ينهض الى عمل لتلافى ما عرض من خلل ، أو مدافعـة الحادث الجلل ، مخالفا فى ذلك كتاب الله وسنة نبيه .

أخطأ المسلم فى فهم معنى الطاعة لأولى الأمر والانقياد لأوامرهم ، فألقى مقاليده الى الحاكم ووكل اليه التصرف فى شئونه ، ثم أدبر عنه حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشئونه جميعا من ادارة وسياسة بدون أن يكون لهـا منه عون سوى الضريبـة التى تفرضـها عليه ، ومن رأى حزن الآباء اذا طلب أبناؤهم لأداء الخدمة العسـكرية ، وما يبذلونه من السعى فى تخليصهم منهـا حكم بأن ما يعقـله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل ، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت الى حد التأليه ، من حيث ظنوه قادرا على كل شيء بدون

عون من أحد ، وانقلبت تلك الثقة الى الادبار والتخلى عنه ، من حيث أنهم تركوه وشأنه ، لا يساعدونه فى حادث ، ولا يعينونه فى أمر مهم ، اللهم الا اذا أرغموا على ذلك ، ومن ذا الذى يحسن عملا اذا ألجىء اليه بالرغم منه . ومن هنا انصرف المسلم عن النظر فى الأمور العامة جملة ، وضعف شعوره بحسنها وقبيحها ، اللهم الا ما يمس شخصه منها .

***

أما الحكام ، وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الأمة مما سقطت فيه ، فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم فى أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم الا تسخير الأبدان لأهوائهم ، واذلال النفوس لخشونة سلطانهم ، وابتزاز الأموال لانفاقها فى ارضاء شهواتهم ،لا يرعون فى ذلك عدلا ، ولا يستشيرون كتابا ، ولا يتبعون سنة ، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم فى الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التى مافشت فى أمة الا حل بها العذاب .

هذا كله الى ما حدث من بدع أخرى من مذاهب شتى فى العقائد ، وطرق متخالفة فى السلوك ، وآراء متناقضة فى الشرائع ، وتقليد أعمى فى جميع ذلك ، فتفرقت المشارب ، وتوزعت المنازع ، وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة ، كل يجذب الى نفسه ، لا ينظر الى حق ، ولا يفزع من باطل ، وانما همه أن يظفر بخصمه ، وذلك الخصم هو ما يدعوه أخا له فى الاسلام فى معرض التشدق بالكلام .

وزد على ذلك أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين فى اعتقادهم وهى بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم ، وظنهم أن فساد العامة لا دواء له ، وأن ما نزل بهم من الضر لا كاشف له ، وأنه لا يمر عليهم يوم الا والثانى شر منه . مرض سرى فى نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم ، لتركهم

المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الأخبار أو خطئهم فى فهم ما صح منها ، وتلك علة من أشد العلل فتكا بالأرواح والعقول ، وكفى فى شناعتها قوله جل شأنه « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

***

تبع هذه البدع جميعها وأخرى يطول ذكرها هزال فى الهمم ، وضعضعة فى العزائم ، وفساد فى الأعمال ، يبتدىء من البيت ، وينتهى الى الأمة ، ويمر فى كل طبقة ، ويجول فى كل دائرة ، خصوصا من دوائر الحكومات ، وما يرمى به المسلمون من التعصب الدينى الأعمى ، فانما عرض على أقوام فى بعض البلاد الاسلامية ، تبعا لهذه البدع الضالة ، على أننى لا أسلم أنهم بلغوا فيه أدنى درجاته فى الأمم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لا يكذب .

هذا ما أصاب المسلمين فى عقولهم وعزائمهم وأعمالهم بسبب ابتداعهم فى دينهم وخطئهم فى فهم أصوله ، وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله ، ولهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها ، وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه الا اذا تداركهم الله بلطفه ، وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب ، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه ، ويعده حجابا بين الأمم والمدنية ، بل يعده منبع شقائهم وسبب فنائهم .

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين فى أواسط القرن الماضى من سنى الهجرة فى أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ثم فى مصر ، وكل منهم بحث فى الداء ، وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ، ولعلهم يلتقون يوما عند الغاية ان شاء الله .

مقصـــد الجميع ينحصر فى استعمال ثقـــة المسلم بدينه فى تقويم شئونه ، ويمكن أن يقال : ان الغرض الذى يرمى اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد ، وازالة ماطرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى اذا سلمت العقائد من البدع ، تبعتها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد ، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية ، وتهذيب أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الصلاح منهم الى الأمة ، فاذا سمعت داعيا يدعو الى العلم بالدين فهذا مقصده ، أو مناديا يحث على التربية الدينية فهذا غرضه ، أو صائحا ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته ، وهـــذه سبيل لمريد الاصلاح فى المســـلمين لا مندوحة عنها . فان اتيانهم من طرق الأدب والحـــكمة العارية عن صبغة الدين ، يحوجه الى انشاء بنـــاء جديد ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا واذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم ، والعناء فى ارجاعهم اليه أخف من احداث ما لا المام لهم به ، فلم العدول عنه الى غيره ؟ .

***

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين ، سواء فى مصر أو غـــيرها أن يثير فتنة عـــلى الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة المسلمين ، غير أن بعض المسيحيين اذا سمع قولا فى الدين أعرض عن فهمه ، وأنشأ لنفسه غولا من خياله ، يخاف منه ويخشى غائلته يسميه باسم الدين ، وبعضهم يظن أنه لو انتبه المسلمون الى شئونهم ، ورجعوا الى الأخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم ، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم ، واستغنوا عمن أدخلوه فى أعمالهم من غيرهم ، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التى نالوها بغفلتهم ، وهو سوء ظن من

الزاعم بنفسه ، فانه بظنه هذا يعتقد أنه غاش مغرر ، وسالب متلصص ، وسوء ظن بالمسلمين أيضا ، فان أهل الوطن الواحد لا يستغنى بعضهم عن بعض ، مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الأعمال ، وغاية الأمر أن ما كان ينال اليوم بدون حق ، يصبح وهو لا ينال الا بحق ، والأجنبى الذى كان ينفق الواحد ويربح المائة ، يرجع الى الاعتدال فى الكسب ، ويحتاج الى شىء من التعب فى استيراد الربح ، وقد كان المسيحيون عاملين فى الدول الاسلامية وهى فى عنفوان قوتها ، والأجانب يطلبون الكسب فى أرجائها وهى فى أرفع مقام من عزتها .

نعم يعرض فى طريق الدعوة الى الدين على هذا الوجه أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم آخر بسورية أو بالهند أو بالعجم أو بأفغانستان أو بغير هذه الأقطار ، لأن مرض الجميع واحد ، وهو البدعة فى الدين ، فاذا نجح الدواء فى موضع كان السليم أسوة للمريض فى موضع آخر ، أما السعى فى توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم ، فلم يمر بعقل أحد منهم ، ولو دعا اليه داع لكان أجدر به أن يرسل الى مستشفى المجانين .

***

يكتب بعض أرباب الأقلام من المسلمين فى حكمة الحج ويقول : انه صلة بين المسلمين فى جميع أقطار الأرض ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم ، فعليهم أن يستفيدوا منه ، وهو كلام حق ، لكن لا ينبغى أن يفهم على غير وجهه ، فان الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين ، حتى يستعين بعضهم ببعض على اصلاح ما فسد من عقائدهم أو أضل من أعمالهم ، وفى مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء ، وهو أمر معهود عند جميع الأمم التى تدين بدين واحد خصوصا عند الأوربيين .

بكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته وكثير منهم يدعو الى عقد الولاء له وهذا أمر لا ينبغي أن يدهش أحدا فان هذه الدولة هى أكبر دول الاسلام اليوم ، وسلطانها أفخم سلاطينهم ، ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حل بهم ، وهو أقدر الناس على اصلاح شئونهم ، وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقائد ، وتهذيب الأخلاق ، بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية ، فأى شىء فى هذا يزعج أوربا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول مسيو هانوتو ؟ .

***

بقى الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد يقول فيه مسيو هانوتو : ان أوربا لم تتقدم الا بعد أن فصلت السلطة الدينية من السلطة المدنية ، وهو كلام صحيح ، ولكنه لم يدر ما معنى جمع السلطتين فى شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون فى عصر من تلك السلطة الدينية التى كانت للبابا على الأمم المسيحية ، عندما كان يعزل الملوك ويحرم الأمراء ويقرر الضرائب على الممالك ، ويصنع لها القوانين الالهية . وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقا للحاكم الأعلى وهو الخليفة أو السلطان ليست للقاضى صاحب السلطة الدينية ، وانما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية ، وأهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم الا التولية والعزل ، ولا لهم عليه الا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ، ورفع المظالم ان أمكن ، وهذه الدولة العثمانية قد وضعت فى بلادها قوانين مدنية ، وشرعت نظاما لطريقة الحكم ، وعدد الحاكمين ومللهم ، وسمحت بأن يكون فى محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل تحت رعايتها ، وكذلك حكومة مصر أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسى ، وشأن

هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولا دخل لشيء من ذلك في الدين ، فالسلطة المدنية هي صاحبة الكلمة الأولى — كما يطلب مسيو هانوتو — ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها في صلاح حال المسلمين بل كان الأمر معكوسا ، فان أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته في ارتكاب المظالم والمغالاة في وضع المغارم والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال .

ان فرنسا تسمى نفسها حامية الكاثوليك في الشرق ، وملكة انجلترا تلقب بملكة البروتستانت ، وأمبراطور الروسيا ملك ورئيس كنيسة معا ، فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين ؟ .

لا أظن أن مسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بيناه ، وأظنه يكون عونا للمسلمين على تعضيدها في البلاد الاسلامية الفرنسية اذا وجد فيها من يقوم بها ، وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنسيين ، فان المسلمين اذا تهذبت أخلاقهم بالدين ، سابقوا الأوربيين في اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ، ولحقوا بهم في التمدن ، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم ان شاء الله .

***

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها ، وعدم ثقة سياسييهم بدولة من الدول ، واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، وعدم اطمئنانهم الى سياسة الدول المسيحية ، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى حد ألا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم .. سمع بذلك كله مسيو هانوتو من صاحب جريدة « الأهرام » ، ومن بعض العثمانيين في الآستانة وباريس ، ثم أخذ يبرهن على أن سياسة أوربا اقتصادية ملكية ، لا دينية لاهوتية .

لا أدرى من هم المسلمون الذين وصفهم مسيو هانوتو ، ومن أبلغه أخبارهم : أهم الهنود وهم فى حكم دولة أجنبيـــة ، ولا نزال نرى فى خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم ، وتعليقهم الآمال بعدلهم ، والتماسهم الحق من طرقه ؟

هل هم مسلمو الروسيا ، وثقتهم بحكومتهم أو ثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد ، حتى أن الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الارثوذكسى ؟ .

هل هم الأفغانيون واخلاص أميرهم فى مصافاة الانجليز أشهر من أن يذكر ، ولا ينفى اخلاصه حرصه على بلاده ،و محافظته على مصلحتها ؟

هل هم الفرس واستنامتهم الى السياسة الروسية لا يجهلها أحد ؟

هل هم التونسيون ، وقد أثنى عليهم مسيو هانوتو بما هم أهله ، وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنسية لمجرد أنها أطلقت لهم الحرية فى دينهم ؟ .

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيده قوله : انهم لا يأتمنون مسيحيا عثمانيا ، والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غـــيرهم ، فأما المصريون فلا شىء عنـــدهم يدل على عدم الثقة بالأوربيين وبالمسيحيين العثمانيين ، فانهم يشاركون فى العمل مواطنيهم من الأقباط فى جميع مصالح الحكومة ، ما عدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين ، وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ، ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبة من الفريق الآخر ، ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية ، الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآذاهم فى دينهم أو فى منافعهم الخاصـــة بهم لا لشىء سوى التعصب الأعمى ، ولا نطلب على ذلك شاهدا أقرب من صـــاحب الجريدة الذى يحادثه مســـيو هانوتو ، فانه بعد أن كان على المســـلمين أثناء الحروب الروسية العثمانية ، وبعد أن أتى ما أتى عقب الحوادث العرابية ، شهد له

المسلمون بأنه صديقهم والساعى فى خيرهم ، كما افتخر بذلك مرارا فى جريدته ، وان كانت له هنـات معروفة فأين فقد هـذه الثقة بالعثمانيين المسـيحيين فى مصر ؟ هل طرد أحد من خـدمة الحكومة لأنه مسيحى عثمانى ؟ هل حرم أحد حق المحاماة أو انشاء الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لأنه مسيحى عثمانى ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد ! ..

***

أما حالهم مع الأوربيين فانا نراهم اذا أحسـوا بعدل من انجليزى ذكروه ، أو وصل اليهم معروف من أى عامل أوربى شكروه ، بل أزيدك على هذا ان المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته انجليزى ، كما شوهد ذلك كثيرا فى شكاياتهم ، وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر وهو ليس بحاكم رسمى ، فأى دليل على الثقة أكبر من هذا ؟ .

ليس بقليل فى مصر من يثق بالفرنسيين ومن له بينهم أصدقاء يركن اليهم ويعتد بولائهم ، ومسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان ذلك .

كثيرا ما أغرى الأوربيون من فرنسيين وأمريكيين من أرباب المدارس فى مصر شـبانا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخـول فى الديانة المسيحية ، وفروا ببعضهم من القطر المصرى الى البلاد الأجنبية ، وأحرقوا أكباد آبائهم ، ومع ذلك لا نزال نرى المسـلمين يرسلون أولادهم الى مدارسهم ، وناظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده يتربون فى مدارس الجزويت ، وكثير من أبناء الأعيان فى مدارس الفرير ، فأى ائتمان يفوق هذا الائتمان ؟ .

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالأوربيين خصوصا فى المعـاملات حتى أساء أولئك الأوربيون استعمالها ، وانتهزوا فرصتها ، وسلبوا كثيرا

من أهل الثروة ما كان بأيديهم ، ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنونهم ، ويغالون فى الاستنامة اليهم ، ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم ، فماذا يطلب من الثقة فوق هذا ؟.

***

هل يشكو عقلاء المسلمين فى مصر من شيء مثل ما يشكون من الثقة العمياء بالأجنبى ، من غير تمييز فيما هو عليه من اخلاص ، أو غش ، من صدق أو كذب ،من أمانة أو خيانة ، من قناعة أو طمع ، حتى آل الأمر بالناس الى ما آلوا اليه من خسارة المال وسوء الحال ! .. فهل هـذا هو فقد الثقة بالأوربيين والعثمانيين المسيحيين الذى يعنيه حضرة صاحب « الأهرام » وجناب مسيو هانوتو ؟ !

وأما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطانها أيده الله ، وجدنا أن نظام الدولة قاض باستخدام المسيحيين فى اداراتها ومحاكمها فى كل بلد فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون على نسبة عددهم أو فوق ذلك ، وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع فى الدولة ما لم ينله مسلم ، وسفارات الدولة ومناصبها العالية لا تخلو من المسيحيين .

اقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات الشرف ، واختصاصه لبعضهم بشرف المثول فى حضرته ، والاحسان اليه برقيق المخاطبة لا ينقطع ذكره من الجرائد ، وصاحب الجريدة التى نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ، ثم سهل عليه وهو مسيحى أن يكون موضع ثقة للجناب السلطانى حتى أدناه منه وقبله فى مجلسه ، وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التى نشرها فى جريدته من نحو شهرين ، أثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ، ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هى الثقة ان كان هذا فقدانها ؟ .

أما سياســة الدولة الخارجية فالفرنســيون يشــكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة ألمانيا وهى دولة مسيحية ، ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اســلامية ، وكانت للدولة ثقــة لا تتزعزع بالسياســة الانجليزية ، ثم حدثت حوادث أهمهــا نشأ من ضــعف سياســة مسيو غلادســتون ، فأعقبها اضــطراب فى تلك الثقة مدة من الزمان بحــكم الضرورة ، انا نراها اليوم تتراجع ، وفى رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ، ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة وهم مسلمون والذى أحب أن يعرفه مسيو هانوتو أن سياســة الدولة العثمانية مع الدول الأوربية ليست بسياسة دينية ، ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها الى اليوم ، وانما كانت فى سابق الأيام دولة فتــح وغلبة ، وفى أخرياتها دولة ســياسية ومدافعة ، و لادخل للدين فى شىء من معاملاتها مع الأمم الأوربية .

أمبراطور ألمانيا جاء الى سورية للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان فى الاحتفال به الى الحد الذى اشتهر وبهر . يجىء الأمراء المسيحيون من الأوربيين الى الآســتانة فيلاقون من الاحتفــال ما لا يلاقونه فى بلاد مسيحية ، وينفق فى تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون فى حاجة اليه . أليس ذلك لمجاملتهم واكتســاب مودتهم ؟ وهل بعد المــودة الا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان أن يكتفى بالرسميات و لايزيد عليها ، ولكن عهد فى معاملته ما يفوق الرسمى بدرجات ، فان سلمنا أن سياسة أوربا ليست دينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هى كذلك ومسلموها تبع لها .

فان قال قائل : ان حوادث الأرمن لم تزل فى ذاكرة أهل الوقت ، وينسبون وقائعها الى التعصب الدينى ، بل يقولون ان أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب ، أمكن أن يجاب بأن العــداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحى منها ومن غيرها ، ومع ذلك فان كثيرا من الأرمن فى خدمة الدولة الى اليوم ، وهم بذلك موضع ثقتها ، وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من أن منشــأ تلك الوقائع التعصب

الدينى ، فان المسيحيين وسواهم فى الممالك العثمانية أنعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بأنفسنا ، ولو أنصف الأوربيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذى يظهر زمنا بعد زمن فى تلك الأقطار ، ولسهل عليهم أن يعرفوا أن منبعه فى أوربا لا فى آسيا .

لا أغالى حين أقول : ان المسيحيين فى الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية فى التعليم والتربية وسائر وجوه الخير ما يتمنى المسلمون أن يساووهم فيه ، فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب « الأهرام » أن يروى عن المسلمين كافة مثل ما رواه : فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعا ، وانى أعتقد أنه عند الكلام على المسلمين لم يكن فى ذهنه الا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه ، فاستحضر فى صورهم جميع المسلمين وسياسييهم .

***

ليعلم مسيو هانوتو أن جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له الا فى ذهن القائل أو الكاتب ، فلا ينبغى أن يعول على مثله فى أحكامه ، وعليه أن يحقق الأمر بنفسه ان كان يهمه أن يتكلم فيه .

وأما أن المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع أنه خدمهم ، وقوله « فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم » ، فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق الى فهمه ، ولو اقتصر على الكلام فى السياسة ، وبحث فى علاقة المسلمين مع حكومته ولم يتناول الدين نفسه فى أصلين من أهم أصوله ، لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من جهة ما هو صحيح أو غير صحيح ، ولكنه لم يكتف بذلك وطعن فى عقيدة التوحيد ، وبين رداءة أثرها فى المسلمين ، واستل سلاحه على عقيدة القدر ، وبين سوء ما جرت اليه فيهم ، وهو بذلك يثبت أن المسلمين لا يزالون منحطين ما داموا مسلمين ، وهو ما لا يرضاه أحد منهم .

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليـــوم وفى انحرافهم عن أصول دينهم ، واكتفى بتعنيفهم على اهمالهم لشئونهم ، وغفلتهم عن مصلحتهم ، كما جاء فى حديثه الذى نحن بصدده ، لما وجد من المسلمين الا معتبرا بقوله متعظا بنصيحته والسلام .

أصـول الإسـلام

الاسلام وأصوله

للاسلام فى الحقيقة دعوتان : دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة الى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

فأما الدعوة الأولى فلم يعـول فيها الا على تنبيه العقل البشرى وتوجيهه الى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الأسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا ، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان . وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه الى أن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها فى تسخير الفلك لمنافعه ، وارسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الأرض بعد موتها وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر ، مما فيه رزق الحى وحفاظ حياته — كل ذلك من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل الى معرفته .

ثم قد يزيده تنبيها بذكر أصل للكون يمكن الوصول الى شىء منه بالبحث فى عوالمه ، فيذكر ما كان عليـه الأمر فى أول خلق السموات والأرض كما جاء فى آية : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون » ونحوها من الآيات . وهو اطلاق لعنـان العقـل ليجرى شـوطه الذى قدر له

فى طريق الوصول الى ما كانت عليه الأكوان ، وقد يزيد التنبيه تأثيرا فى ايقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة ، كما جاء فى خبر من سأل النبى صلى الله عليه وسلم وآله : أين كان ربنا قبل السموات والأرض ؟ فأجابه عليه السلام : « كان فى عماء تحته هواء » (١) والعماء عندهم سحاب . فنرى القرآن فى مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارىء القرآن يغننى عن سرد الآيات الداعية الى النظر فى آيات الكون : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » ؟ .. « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منهاحبا فمنه يأكلون» . «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » وأمثال ذلك . فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه فى مقالى هذا .

يذكر القرآن اجمالا من آثار الله فى الأكوان تحريكا للعبرة ، وتذكيرا بالنعمة ، وحفزا للفكرة ، لا تقريرا لقواعد الطبيعة ، ولا الزاما باعتقاد خاص فى الخليقة ، وهو فى الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذا السبيل ، أنظر كيف يقرع بالدليل « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » . « ما اتخذ الله من ولد ، وماكان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق . ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » .

***

فالاسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى ، والفكر الانسانى الذى يجرى على نظامه

---

(١) رواه ابن جرير الطبرى والطبرانى وابو الشيخ فى العظمة عن أبى رزين السائل (رض) والحديث من المتشابهات ولكنه يوافق ما يقوله علماء الكون فى أصل مادة العالم التى يسميها بعضهم السديم . وفى معنى الحديث قوله تعالى فى التكوين (ثم استوى الى السماء وهى دخان) .

الفطرى « وهو ما نسميه بالنظام الطبيعى » فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية ، وقد اتفق المسلمون — الا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم — على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وانه لا يمكن الايمان بالرسل الا من الكتب المنزلة فانه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولا .

وقالوا كذلك : ان أول واجب يلزم المكلف أن يأتى به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه الى تحصيل الايمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة .

***

وأما الدعوة الثانية فهى التى يحتج فيها الاسلام بخارق العادة وما أدراك ما هو خارق العادة الذى يعتمد عليه الاسلام ، فى دعوته الى التصديق برسالة النبى عليه السلام ؟ هذا الخارق للعادة هو الذى تواتر خبره ، ولم ينقطع أثره ، هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد فى الأخبار ، سواء صح سنده أو اشتهر أو ضعف أو وهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين . فاذا أورد فى مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل أصله ، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله .

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة — تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر — هو أنه جاء على لسان أمى لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هاديا للضال مقوما للمعوج ، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم منقذا لهم من خسران كانوا فيه ، وهلاك كانوا أشرفوا عليه وهو مع ذلك

من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق اليه كلام سواه ، حتى لقد دعا الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ولجئوا الى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به الى أن ألجئوهم الى الدفاع عن حقهم ، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الاسلام تمد عالمها بأضوائها ، وتنشر أنوارها فى أجوائها .

وهذا الخارق قد دعى الناس الى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بأن يأتوا فى نظرهم على آخر ما تنتهى اليه قوتهم فان وجدوا طريقا لابطال اعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على المدعى فعليهم أن يأتوا به . قال تعالى : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » . وقال : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » وقال غير ذلك مما هو مطالب بمقاومة الحجة ، ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل .

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهى معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها ، ونشر ما انطوى فى أثنائها ، وله منها حظه الذى لا ينتقص . فهى معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها ، أما معجزة موت حى بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت ، أو اخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهى مما ينقطع عنده العقل ويجمد لديه الفهم ، وانما يأتى بها الله على يد رسله لاسكات أقوام غلبهم الوهم ، ولم يضىء عقولهم نور العلم ، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات .

ثم ان الاسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلا على أن الحق لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير الى أن الداعين اليه يمكنهم أن يغيروا شيئا من سنة الله فى الخليقة ، ولا حاجة الى بيان ذلك فهو أشهر من أن يحتاج الى تعريف .

الاصل الاول للاسلام

النظر العقلى لتحصيل الايمان : فأول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلى . والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة وقاضاك الى العقل ، ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن الى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه ؟ .

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : ان الذى يستقصى جهده فى الوصول الى الحق ثم لم يصل اليه ومات طالبا ، غير واقف عند الظن فهو ناج ، فأية سعة لا ينظر اليها الحرج أكمل من هذه السعة ؟ .

الاصل الثانى

تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض : أسرع اليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن انتقل الى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على أنه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر الى الله فى علمه ، وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل .

وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد ، فماذا عساه أن يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ما هو أبعد من هذا ؟ وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ان لم يسعهم هذا الفضاء ؟ ان لم يكن فى هذا متسع لهم فلاوسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء بأجرامها وأبعادها .

الاصل الثالث

البعد عن التكفير : هلا ذهبت من هذين الأصلين الى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم وهو اذا صـــدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الايمــان من وجه واحد حمل على الايمان ، و لايجــوز حمله على الكفر ، فهــل رأيت تسامحا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليــق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الايمان من وجه واحد من مائة وجه ؟ اذا بلــغ به الحمق هذا المبلغ كان الأجــدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار .

الاصل الرابع

الاعتبار بسنن الله فى الخلق : يتبع ذلك الأصــل الأول فى الاعتبار — وهو ألا يعول بعد الأنبياء فى الدعوة الى الحق على غير الدليل ، وألا ينظر الى العجائب والغرائب وخوارق العادات — أصل آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الاسلام واصــلاح أعمالها فى معاشها ومعادها — ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفى آثار سيرهم فيهم . فمما جاء فى الكتاب العزيز مقررا لهذا الأصل : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظــروا كيف كان عاقبة المكذبين » . « ســنة من قد أرســلنا قبلك من رســلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » . « فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » . « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » الخ .

فى هذا يصرح الكتاب أن لله فى الأمم والأكوان سـننا لا تتبـدل والسنن الطرائق الثابتة التى تجرى عليها الشـئون وعلى حسبها تكون الآثار ، وهى التى تسمى شرائع أو نواميس ، ويعبر عنها قوم بالقوانين ما لنا ولاختلاف العبارات ؟ الذى ينادى به الكتاب .. أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة فى هذا الاجتماع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد اليها أعماله ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن الا الشـقاء ، وان ارتفع الى الصالحين نسـبه ، أو اتصـل بالمقربين سـببه . فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لا يعظم تسامحها معه ؟ .

***

جاء الاسـلام لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية أو رومانية ، أو غيرها ، فى أى لباس وجدت ، وفى أية صورة ظهرت ، وتحت أى اسم عرفت ، ولكن كتابه عربى والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الأقربين . وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولا تعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمه وأساليبه ، ولن يكون ذلك الا بحفظ مـا نطق به العرب من منظوم ومنثور ، وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر فى كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم ، وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المسلمون الأولون — ركبوا الأسفار ، وأنفقوا الأعمار ، وبذلوا الدرهم والدينار ، فى جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره ، توسلا بذلك الى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضربا من ضروب العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين ألا يحتقر العلم الذى ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين

علم ما ليس منه (١) متى حسنت النية فى تناوله وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته الا أهل العلم به ، وأما المسيحيون الأولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانيا كان أو عبرانيا « أو آراميا » وكتبوا الأناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب بالعبرية الا انجيل متى ، فيما يقال . ألا ترى ان اسم الانجيل نفسه يونانى ؟ .. كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظمهم بلغتهم وتحرجا من النظر فى دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم .

الاصل الخامس

قلب السلطة الدينية : أصل من أصول الاسلام انتقل اليه — وما أجله من أصل — قلب السلطة الدينية والاتيان عليها من أساسها .

هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم . لم يدع الاسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على ايمانه على أن الرسول عليه السلام كان مبلغا ومذكرا لا مهيمنا ولا مسيطرا ، قال الله تعالى : « فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا فى الأرض ولا فى السماء . بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رق الا العبودية لله وحده ، وليس لمسلم — مهما علا كعبه فى الاسلام — على آخر — مهما انحطت منزلته فيه — الا حق النصيحة والارشاد .. قال تعالى فى وصف المفلحين : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقال : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وقال « فلولا نفر من كل فرقة منهم

(١) اى قد يعد الاسلام من الدين الذى يتقرب به الى الله — الاشتغال بعلم غير دينى بنية صالحة كنفع الناس به .

طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون »
فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير — وهم
المراقبون عليها — يردونها الى السبيل السوى اذا انحرفت عنه . وتلك
الأمة ليس لها عليهم الا الدعوة والتذكير والانذار والتحذير ، ولا يجوز
لها ولا لأحد من الناس أن يتتبع عورة أحد . ولا يسوغ لقوى ولا لضعيف
أن يتجسس على عقيدة أحد وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو
يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد الا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله
عليه وسلم .

***

لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام
رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف وانما يجب عليه قبل ذلك
أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم ، كقواعد اللغة العربية وآدابها
وأساليبها وأحوال العرب خاصة فى زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن
النبى صلى الله عليه وسلم . وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحى ،
وشىء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فان لم تسمح له حاله بالوصول
الى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه الا أن يسأل
العارفين بهما وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء
كان السؤال فى أمر الاعتقاد أم فى حكم عمل من الأعمال .

فليس فى الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من
الوجوه .

السلطان فى الإسلام

لكن الاسلام دين وشرع ، فقد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ، وليس كل معتقد فى ظاهر أمره بحكم يجرى عليه فى عمله . فقد يغلب الهوى . وتتحكم الشهوة . فيغمط الحق . ويتعدى المعتدى الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق . وصون نظام الجماعة . وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير فلا بد أن تكون فى واحد وهو السلطان أو الخليفة .

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم شرط فيه أن يكون مجتهدا أى أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها — مما تقدم ذكره — بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج اليه من الأحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه اقامة العدل الذى يطالبه به الدين والأمة معا .

هو — على هذا — لا يخصه الدين فى فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ، ولا يرتفع به الى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء . انما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الاصابة فى الحكم (١) ثم هو مطاع مادام على المحجة ونهج الكتاب والسنة والمسلمون له بالمرصاد ، فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليه واذا أعوج قوموه بالنصيحة والأعذار اليه (٢) « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (٣) فاذا فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب

---

(١) من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم فى الفهم والعلم ، الم يأتك نبأ الامام مالك مع الخليفة هرون الرشيد رحمهما الله ؟ وكيف انزل الامام الخليفة من المنصة واقعده مع العامة عند القاء الدرس ، لأنه فى رتبة المستفيد .

(٢) من شواهد ذلك قول الخليفة أبى بكر رضى الله عنه فى خطبته « وان زغت فقومونى » .

(٣) حديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

عليهم أن يستبدلوا به غيره ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحه فيه (١) .

فالأمة أو نائب الأمة هو الذى ينصبه ، والأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه .

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج « ثيوقراطى » أى سلطان الهى فان ذلك عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله وله حق الاثرة بالتشريع وله فى رقاب النـاس حق الطاعة ، لا بالبيعة ، وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة ، بل بمقتضى الايمان فليس للمؤمن ما دام مؤمنا أن يخالفه ، وان اعتقد أنه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله ما لا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه ، لأن عمل صاحب السلطان الدينى وقوله فى أى مظهر ظهرا هما دين وشرع ، هكذا كانت سلطة الكنيسة فى القرون الوسطى . ولا تزال الكنيسة تدعى الحق فى هذه السلطة كما سبقت الاشارة اليه .

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه : تشرع وتنسخ ما تشاء ، وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطى كما تريد ، وخول السلطة المدنية حق التشريع فى معاملات الناس بعضهم لبعض ، وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم ، فى معاشهم لا فى معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعا للخير الأعم عندهم .

ثم هم يهمون فيما يرمون به الاسلام من أنه يحتم قرن السلطتين فى شخص واحد . ويظنون أن معنى ذلك فى رأى المسلم أن السلطان هو مقرر الدين ، وهو واضع أحكامه وهو منفذها ، والايمان آلة فى يده

---

(١) مثال ذلك ان يكون له عصبية اقوى من الامة يخشى أن يبيدها بها . ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

يتصرف بها فى القلوب بالاخضاع وفى العقول بالاقنـاع ، وما العقل والوجدان عنده الا متاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمى حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاســلامى أن يأخذ بالتسامح مع العلم ما دام من أصوله أن اقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الاسلام . وعلمت أن ليس فى الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة الى الخير والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » أن مسألة السلطان فى دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم . وقد تقدم ما يشير الى ما صنع الخلفاء العباسيون والأمويون الأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء . وربما أتينا على شىء آخر منه فيما بعد .

يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الدينى أفلا يكون للقاضى أو للمفتى أو شيخ الاسلام ؟.. وأقول : ان الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء ، فهى سلطة مدنية قررها الشرع الاســلامى ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على ايمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه فى طريق نظره .

الأصل السادس

حماية الدعوة لمنع الفتنة : قالوا ان الدين الاسلامى دين جهادى شرع فيه القتال ولم يكن شرع فى الدين المسيحى ، ففى طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه ، وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضى بهما شريعة المسالمة ، وهى الشريعة التى وردت فى كثير من الوصايا المسيحية « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، من سخرك ميلا فسر معه ميلين » . « متى ٥ : ٣٩ ، ٤٠ » ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة العدو وهى مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق ، وانما الاختيارى العدل بين الأعداء والأولياء . لكن فى ملكوت الله كل شىء مستطاع ولا شىء فيه بمستحيل .

قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الاسلامى أو هو فى طبيعة كل قادر يعذر الى خصمه ؟. ليس القتل فى طبيعة الاسلام بل فى طبيعته العفو والمسامحة: « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله الى أن يأمن شرهم ، ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للاكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه ، ولهذا لا تسمع فى تاريخ الفتوح الاسلامية ما تسمعه فى الحروب المسيحية ، عندما اقتدر أصحاب « شريعة المسالمة » على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والأطفال (١) .

لم تقع حرب اسلامية بقصد الابادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدى المسيحيين . وانما كان الصبر والمسالمة دينا عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين . وغاية ما يقال : ان العناية الالهية منحت الاسلام فى الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل . فتيسر له فى شبيبته ما لم يتيسر لغيره الا فى كهولته أو شيخوخته .

(١) لعل ما كان يحدث بالامس فى الجزائر من الفرنسيين وفى كينيا من الانجليز خير شاهد على ذلك .

في الحرب والسلم

الاسلام الحربى كان يكتفى من الفتح بادخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين ، يؤدون ما يجب عليهم فى اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وانما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى معاملة . وكان خلفاء المسلمين يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال ، وكل من لم يعن على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنهى عن ايذاء أهل الذمة وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » و « من آذى ذميا فليس منا » (١) . واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الاسلام . ولست أبالى اذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام ، عندما بدا الضعف فى الاسلام — وضيق الصدر من طبع الضعيف — فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطينته .

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم . حتى اذا تمت لها القدرة على طردهم ، بعد العجز عن اخراجهم من دينهم وتعميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت

---

(١) ورد بهذا المعنى أحاديث فى الصحاح والسنن وايذاء الذمى والمعاهد محرم بالاجماع وروى الخطيب من حديث ابن مسعود « من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خاصمته يوم القيامة » .

الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقيا .

لا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى الا كثرة العدد ، أو شدة العضد ، كما شهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لأنه ما جاء ليلقى سلاما بل سيفا ، ولأنه جاء ليفرق بين البنت وأمها ، والابن وأبيه (١) والاسلام يقول كتابه فى شأن الوالدين المشركين : « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى » فهو فى اشتداده على المهدين لأمته لا يقضى بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت ، بل يأمر الأولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالدين المشركين بالمعروف فى الدنيا مع محافظتهم على دينهم .

فأنت ترى الاسلام من جهة يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها بشىء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ولا يخلون بنظام السلطة العامة . ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شئونهم الخاصة بهم ، ولا رقيب عليهم فيها الا ضمائرهم . ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوى قرباهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم ففى

---

(١) هذا نص انجيل متى فى هذا . ومثله قول انجيل لوقا ١٤ – ٢٥ و ٢٦ « وقال لهم « يسوع » ان كان أحد يأتى الى ولا يبغض اباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته واخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لى تلميذا » وفى الباب ١٩ من هذا الانجيل ما نصه « ٢٧ اما أعدائى أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم الى هنا واذبحوهم قدامى » واما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك فى القسوة على الاهلين المخالفين وعلى سائر المحاربين قال فى ١٣ : ٩ من سفر تثنية الاشتراع : « واذا غواك سرا اخوك ابن امك أو ابنك او ابنتك او امرأة حضنك أو صاحبك الذى مثل نفسك قائلا : نذهب ونعبد الهة اخرى لم تعرفها انت ولا آباؤك . الهة الشعوب القريبين منك او البعيدين عنك من اقصاء الارض الى اقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا تقتله . الخ » .

وفى سفر التثنية أيضا « ٢٠ : ١٠ – ١٦ » ما نصه « حين تقرب من مدينة لتحاربها ادعها الى الصلح فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كلها غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك الذى اعطاك الرب الهك ، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جدا منك التى ليست من هؤلاء الأمم هنا ، واما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منهم نسمة ما » .

طبيعته أن يكل أمر الناس فى سرائرهم الى ربهم ، وفى طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمى من لا يتبع سنته ، وان كان فى عمى من الجهالة ، وخبل من الضلالة .

أفترى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء ، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضـــلاء ، ممن ينفق عمره فى تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبين طريقـــة ؟.. كلا ثم كلا ، فمن بحث ونقب ، وسبر ونقر ، أو شق الأرض أو ارتقى الى السماء ، فهو فى أمن من أن يعرض الاسلام له فى شىء من عمله ، الا أن يحدث شغبا ، أو يفسد أدبا ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، واصلاح الفاسد بسماح من الدين .

الاصل السابع

مودة المخالفين فى العقيدة

المصاهرة : أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، نصرانية كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، والذهاب الى كنيستها أو بيعتها ، وهى منه بمنزلة البعض من الكل ، وألزم له من الظل ، وصاحبته فى العز والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه .

لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية ، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى « ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » فلها حظها من المودة ، ونصيبها من الرحمة ، وهى كما هى . وهو يسكن

اليهما كما تسكن اليه ، وهو لباس لها كما أنهــا لباس له . أين أنت من صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد فى طبيعة البشر ؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم وذوى القربى لوالدتهم ، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المســلم بأمثــال هذا التسامح ، الذى لم يعهــد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه ؟ ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هــذا الوجه فى نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذى يحاسب عليهــا ، وأما المخلوق فلا تطول يده اليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل ، وينصح الغاوى ، ويرشد الضال . لا يكفر فى ذلك نعمة العشير ، ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخــالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء .

ماذا ترى فى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلى وذهبت مذهبا يخالف مذهب زوجها ؟ .. أفينقص ذلك من مودته لها؟ أو يضعف من شعور الرحمة التى أفاضها الله بينه وبينها ؟ فاذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبــة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته ودينه وملته ، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته ، أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه الى اكتشاف سر أو تقرير أصل فى علم ، أو قاعدة لصناعة ؟.. ان كان قد يخالف ظاهرا مما يعتقد ، أو يميل الى رأى غير الذى يجد ؟.. أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف وهو معه على ما رأيت من الائتلاف ؟ .

لو ذهبت أعد ما فى طبيعة الاسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم ، وتكون حقيقة المسامحة مع العلم لأطلت على القارىء أكثر

مما أطلت . ولهذا أرى من الواجب على أن أختم القول بذكر أصل أشرت اليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره .

الاصل الثامن

الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة :

الصحة : الحياة فى الاسـلام مقدمة على الدين . أوامر الحنيفية السمحة ان كانت تختطف العبد الى ربه ، وتملأ قلبه من رهبه ، وتفعم أمله من رغبه ، فهى مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، لا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه فى ترك اللذات ما فوق العادة

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسـلم لم يقل : « بع ما تملـك واتبعنى » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصـدق به من مال « الثلث ، والثلث كثير ، انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

الرخص : فرض الصـوم على المؤمنين لكن اذا خشى منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه ، بل قد يجب اذا غلب على الظن الضرر فيه .

الوضوء أو الغسل من شروط الصحة للصلاة الا اذا خشى منه الضرر أو عرضت مشقة فى تحصيل الماء .

القيام مما لاتصح الصلاة الا به الا اذا أصابت المصلى مشـقة فيه فيسقط ، ويصلى قاعدا .

السعى الى الجمعة واجب الا اذا كان هناك وحـل غزير ، أو مطر كثير ، أو ما يوجب تعبا ومشقة فيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت « صحة الأبدان ، مقدمة على صحة الأديان » فترى الدين قد راعى فى أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح .

الزينة والطيبات : أباح الاسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات ، على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفات الرجولة ، جاء فى الكتاب العزيز « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » (سورة الاعراف) .

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله ، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره ، كما قال : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس * ان ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » ثم قال : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (سورة النحل) .

الاقتصاد : ووضع قانونا للانفاق وحفظ المال فى قوله : «ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا * ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (سورة الاسراء) .

النهى عن الغلو فى الدين : وخشى على المؤمن أن يغلو فى طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا اذ قال : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك

ولا تبغ الفســادة فى الأرض ★ ان الله لا يحب المفســدين » (ســورة القصص) .

فترى أن الاســلام لم يبخس الحواس حقها ، كما أنه هيــأ الروح لبلوغ كمالها . فهو الذى جمع للانسان أجزاء حقيقية واعتبره حيوانا ناطقا لا جسمانيا صرفا ولا ملكوتيا بحتا ، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة . واستبقاه من أهل هذا العالم الجسدانى ، كما دعاه الى أن يطلب مقامه الروحانى . أليس يكون بذلك وبما بينه فى قوله : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » قد أطلق القيد عن قواه ، لتصل من رفه الحياة « مع القصد » الى منتهاه ؟ .. والنفوس مطبوعة على التنافس قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيرا أو تجده لذيذا أو تظنه نافعا .

وليس فى الغريزة الانسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهى بها السعى الى غاية لا مطلع للرغبة وراءها ، بل خصها الله بالمكنة من الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه الى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف .

***

فاذا جمع سائق الأنفس ومزجيها ومرشدها وهاديها ، بين شاحذين ، شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا ، وشاحذ الرغبة فى النعيم الدائم فى الآخرة ، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضاء فى الدنيا بالدون وفى الآخرة بعــذاب الهون ، فترى كل نفس تمضى مع اســتعدادها بشهامة فؤادها مضاء الزميع لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد فتطلب منافعها من هــذا الكون الذى وجــدت فيه ووجد لها ، فتســير ، فى مناكب الأرض ولا تكتفى عن الكل بالبعض ، وتبحث فى تربتها ، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها ، ولا يحجبها ظهرها عن مد يدها الى ما فى جوفها ، ولا تجد ما يصدها عن النظر فى الهواء ، والبحث فى

الماء ، والاهتداء بنجوم السماء بعد معرفة مواقعها وحركاتها فى مداراتها واستقامتها وانحرافها وظهورها وخنوسها ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجـوه النظر أو الولوج فى باب من أبواب العلم . ينطلق الى حيث يبلغ به استعداده اما للنجاة من ضرورة واما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة ، لا يجد من نواهى الدين ما يصده عن مطلب ، ولا ما يكف يده عن تناول رغيبة ، أين هذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص الا فى مجافاة هذا العالم ولذائذه ، ويجد أن الغنى والثروة من الحجب التى لا تخرق ، تحول بينه وبين ملكوت السموات .

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره ، اذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكـره لينفذ من ظاهره الى سره ، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصـلح لخدمته فى توفير منافعه ؟ .. كيف يشكر الله اذا توانى فى ذلك وقد أرشده الله فى كتابه وبسنة نبيه الى أن عالمه انما خلق لأجله ، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله ؟ .. أنظر الى لطف الاشارة فى الآية المتقدمة « قل من حرم زينة الله » الخ حيث قال : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعـالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويجمـل به هيئتهم ، ويجلى به زينتهم .

المسلمون مسـوقون بنابل من دينهم الى طلب ما يكسـبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية ، ولا يتوفر شىء من وسائل ذلك الا بالعلم — فهم محفوزون أشـد الحفز الى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان ، وتلقيه من أية شفة وأى لسان فاذا لا قاهم العالم فى أى سبيل ، أو عثروا به فى أى جيل ، أو ظهر لهم من أى قبيل ، هشوا له وبشوا ، ونصبوا اليه وكمشوا وشدوا به أواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ما تكون عقيدته ، اذا نفعتهم حكمته « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » ألم يأتهم عن ربهم : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا

أولو الألباب » ألم يسمعوا فى وصفهم قوله : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

ذلك شأن المسلم مع العلم اذا كان مسلما حقا ، وذلك ما تنجر اليه طبيعة دينه ، وحديث « أطلبوا العلم ولو بالصين » (١) ان كان فى سند لفظه الى النبى صلى الله عليه وسلم مقال ، فسند معناه متواتر فانه سند القرآن نفسه ، فان الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص ، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين ، ولو لم يكن فى الصين مسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

لا شىء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه ، وان كان فى أول أمره مطلوبا لغيره ، مثل العلم ، تطلب العلم أولا لحاجتك اليه فى تقويم معيشة ، أو ترفيه حال أو دفاع عن نفس وملة ، ثم لا تلبث اذا أوغلت فيه أن تجد اللذة فى العلم نفسه ، فتصير اللذة بتحصيله والوصول الى دقائقه غاية تقصد بنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة فان العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية ، بل هى أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة ، كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة ، ولست فى حاجة الى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس . فالحيوان يعرفها بله الانسان ، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له ، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شىء عند الانسان ألذ من كشف المجهول ، واحراز المعقول وقد سمح الاسلام للمسلم أن يتمتع فى هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح فى مملكة العلم ليمتع عقله كما يسيح فى بسيط الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله ؟ .. على أن العلم كان من ضرورات معيشة المسلم أو

---

(١) رواه ابن عدى فى الكامل . والبيهقى فى شعب الايمان والمدخل . وابن عبد البر فى العلم والخطيب فى الرحلة . والديلمى فى مسند الفردوس ،وغيرهم ، وله طرق كثيرة يقوى بعضها بعضا .

حاجياتها — كما ذكرنا — فاذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلى سناءه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه حتى يدخل معه فى رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين . قال امام جليل من أئمتهم : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله » .

نتائج هذه الاصول

الى أين أفضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ .. وماذا كان أثرها فى أسلافهم الأولين ؟ .. فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى بست سنوات فى رواية ، وتسع سنوات فى رواية أخرى ، والاسلام فى طلوع فجره وتفتح نوره . فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحى من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوى ، كان فى بدء أمره ملاحا يعبر الناس بسفينته وكان يميل الى العلم بطبيعته ، فاذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى الى مذكراتهم ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة ، فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم ، وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته .

يقول كثير من مؤرخى الغربيين ومؤرخى المسلمين : ان عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين : « ان المحبة التى نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربى من الأفكار الحرة والرأى العالى ، بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل فى التوحيد المحمدى أصبح على غاية من الاستعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع » .

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم فى أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية فى سورية ، ولم تغير بالعربية الا بعد عشرات من السنين فاحتكت الأفكار بالأفكار ، وأفضت سماحة الدين الى أن أخذ المسلمون فى دراسة العلوم والفنون والصنائع .

إشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية

اشتغالهم بالعلوم الادبية

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة على بن أبى طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس الى ذلك ، وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم فى ظلام تلك الفتن استرسالا مع ما يدعوهم اليه دينهم ، وتنبههم لطلبه شريعتهم ، وان كانت الحروب الداخلية — التى اشتعلت نارها فى أطراف بلادهم للنزاع فى أمر الخلافة — قد شغلتهم عن كل شىء من مصالحهم ، فانها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة ، فالبراعة فى الآداب : من علم بوقائع العرب وتاريخهم ، وقول الشعر ، وانشاء البليغ من النثر ، قد بلغت فى خلافة بنى أمية مبلغا لم تبلغه أمة قط فى مثل مدتها ، وكان الخلفاء الأمويون يعلون منزلتها ، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير ، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية فى آخر دولتهم ، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول .

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة الى الشام ولم يسيروا فى الزهد سيرة الخلفاء الراشدين ، فقد جاء رسول من الفرس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما سأل عنه دل عليه فذهب اليه فاذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك الى معاوية رحمه الله فاذا هو فى قصر مشيد محلى البنيان بأجمل مايكون من الصنعة العربية مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء ، مفروش بأحسن الفرش ، يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش ، ولم يكن معاوية فى ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه ، وانما تناول مباحا ، وتمتع برخصة آتاه الله

اياها ، ولا يخفى ما فى ذلك من ترويج فنـون الابداع فى الصنعة على اختلاف ضروبها .

اشتغالهم بالعلوم الكونية :

انقضت دولة بنى أمية والناس فى ظلمات من الفتن كما قلنا ، ودالت الدولة لبنى العباس واستقرت فى نصابها من آل بيت النبى قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثانى للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد فصارت بعد ذلك عاصـمة العلم والمدنية أيضا ، وأخذ المنصور أيضا ينشىء المدارس للطب والشريعة ، وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه فى تعلم العلوم الفلكية ، وأكمل حفيده الرشيد ما شرع فيه وأمر بأن يلحق بكل مسـجد مدرسة لتعليم العـلوم بأنواعها ، وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم الى أوج قوتها ، ونالت به أكبر ثروتها ، ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مائة بعير ، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الآستانة فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس فى الرياضة السماوية ، فأمر المأمون فى الحال بترجمته وسموه بالمجسطى ، ولا يسهل على كاتب احصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها فى دولة بنى العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

انشاؤهم دور الكتب

وقد أخذت دول الاسلام تعتنى بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها ، حتى كان فى القاهـرة فى أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوى على مائة ألف مجلد ، منها ستة آلاف فى الطب والفلك لا غير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين فى القاهرة ، وكان

فيها كرتان سماويتان (احداهما) من الفضـــة يقال ان صانعها بطليموس نفسه وانه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينـــار (والثانية) من البرنز . ومكتبة الخلفاء فى أسبانيا بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد وكان (فهرسها) أربعة وأربعين مجلدا . وقد حققوا انه كان فى أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمـــومية ، وكان فى هذه المكاتب مواضـــع خاصة للمطالعة والنســـخ والترجمة .

وبعض الخاصـــة كانوا يولعـــون بالكتب ويجعلون دورهم معاهد دراسة لما تحتوى عليه . يقال ان سلطان بخارى دعا طبيبا أندلسيا ليزوره فأجابه .. أن ذلك لا يمكنه لأن كتبه تحتاج الى أربعمائة جمل لتحملهاوهو لا يستغنى عنها كلها . وكان حنين بن اسحق النسطورى فى بغداد ممن جعل فى داره مكتبة عامة يفد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذكراتهم فيما يريدون المذاكرة فيه .

انشاؤهم المدارس للعلوم

غطى بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس . نقول « على سعتها » لأنها زادت فى السعة على المملكة الرومانية بكثير ، فكنت تجد المدارس فى كل الأقطار : فى المغول ، فى التتار ، من جهة المشرق . فى مراكش ، فى فاس ، فى أسبانيا من جهة المغرب .

وكانت طريقة الأســـاتذة فى التدريس أن كل مدرس يعد درســـه ويكتب — فى الموضوع الذى يلقى الدرس فيه — ما يريد أن يكتب ، ثم يلقيه على التلاميذ وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالى تنشر بين الناس فى كل علم . وهنا نبادر الى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على أن جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شىء مما كتب صاحب الكتاب ، غير أن مؤرخا واحدا رأيته ذكر أنه قد وضع قانون فى بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب

العقائد مقتضاه ألا ينشر منها شيء الا باذن ، على أني لا أعلم شيئا من ذلك وقع في الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما .

نرجع الى الكلام في المدارس الاسلامية : يقول « جيبون » في كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق وفي الغرب : « ان ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء ، في اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه ، وكان من أثر ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . أنفق وزير واحد لأحد السلاطين « هو نظام الملك » مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد وجعل لها من الريع الذي يصرف في شئونها خمسة عشر ألف دينار في السنة ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة ، وابن أفقر الصناع فيها ، غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغني يكتفي بمال أبيه ،والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة » .

انقسمت الممالك الاسلامية في زمن من الأزمان الى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع : كان العباسيون في آسيا (الشرق) ، والأمويون في الأندلس من أوربا (الغرب) ، والفاطميون في مصر من افريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث مقصورا على الملك والسلطان ، ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والأدب ، وكان مرصد سمرقند قائما في ناحية المشرق يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الأفلاك ، ومرصد جيرالد في الأندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الادراك .

جميع المدارس في البلاد الاسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية عن مدرسة الطب في القاهرة ، وكان من أشد النظامات وأدقها ، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته الا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه

فاز فى الامتحان على شدته ، وأول مدرسة طبية أنشئت فى قارة أوربا على هذا النظام المحكم هى التى أنشأها العرب فى (ساليرن) من بلاد ايطاليا وأول مرصد فلكى أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب فى اشبيلية من بلاد أسبانيا .

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الأدبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والأساطير الخيالية ، فى الأحوال الاجتماعية ، وابتدءوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية ، وأخذوا ينقلون كتب الأولين من تلك الألسن الى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة . وكان مترجموهم فى أول الأمر مسيحيين وصابئين و غيرهم ، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليونانى واللاتينى وكتبوا معاجم فى اللسانين وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها ، وينقلوها الى لسانهم على حسب ما يصل اليه علمهم فيها . فكان المعلمون لأبناء العظماء فى أول الأمر من المسيحيين واليهود ، ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين ، كل يعلم العلم الذى عرف هو بالبراعة فيه .

علوم العرب واكتشافها

كان علم العرب فى أول الأمر يونانيا ، ولكنه لم يلبث كذلك الا دون قرن واحد ثم صار عربيا ، ولم يرض العربى أن يكون تلميذا لأرسطو وأفلاطون أو اقليدس أو بطليموس زمنا طويلا كما بقى الأوربى كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحى .

قالوا : ان « باكون » هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية أو أقامها مقام الرواية عن الأساتذة والتمسك بآراء المصنفين ، وأطلق العلم من رق التقليد . ذلك حق فى أوربا ، وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها فى أواخر القرن الثانى من الهجرة .

أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجـربة ، وألا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية فى العلوم ما لم تؤيدها التجربة ، حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الأوربيين أن القاعدة عند العـرب هى « جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا » وعند الأوربى الى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحى « اقرأ فى الكتب وكرر ما يقول الأساتذة تكن عالما » فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقب من سوء المـآل .

قال « ديلامبر » فى تاريخ علم الهيئة : « اذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد فى العرب عددا كبيرا غـير محصـور » وأما فى الكيميـاء فلا يمكنـك أن تعد مجربا واحـدا عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين مئين عند العـرب . ولهـذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سـواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون والرياضة من الآلات المنطقية ، يستعملونها فى الاستدلال على القضايا النظرية ، وهى من أصدق الأدلة فى الايصال الى المجهولات كما هو معروف .

والعرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن ، وهم أول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض .

وقد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها جداول فى غاية الدقة والصـحة ، كما وضعوا جداول للأرصاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون فى سـمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصـلوا بتلك القـوانين الى ما يقـرب من اكتشاف الجاذبية .

ولا يمكننى فى مقالى هذا أن أعد ما اكتشفه العرب ولا ما زادوه فى العلوم على اختلاف أنواعها فذلك يحتاج الى سفر كبير ، وقد أحصى ذلك

أهل المعرفة والانصاف من فلاســفة الأوربيين ومؤرخيهم ، وربما يتيسر لأبناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لاخــوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم ، ولكننى أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين (١) .

« تأخذنا الدهشــة أحيانا عندما ننظر فى كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد انها لم تولد الا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال أنواعها ، فان هذا الرأى كان مما يعلمه العرب فى مدارسهم وكانوا يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشــكالها . قال الخــازنى اذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : ان الذهب قد تقلب فى الأشكال المختلفة حتى صار ذهبا ظن من هذا أنه مر فى صور معادن أخرى فكان رصاصا ثم قصديرا ثم صفرا ثم فضة ، ثم صار بعد ذلك ذهبا ولا يعلم أن الفلاسفة اذا قالوا ذلك فانما يقصدون منه ما أرادوه من قــولهم فى الانسان : انه وصل الى حالته الحاضرة بالتــدريج ، ومن طريق الترقى وهم لم يعنوا بقولهم هذا انه تقلب فى صور الأنواع المختلفة كأن كان ثورا ثم حمارا ثم فرسا ثم قردا ثم صار بعد ذلك انسانا » .

ويقول الفيلسوف جوستاف لبون : « ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب فى حرية الرأى الى نقض أصل الدين وقال : ان الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وانما الذى يبقى هو أرواح الأنواع . فان هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه فى بيان بقاء الأنواع دون الأشخاص فانه قال كما قال أرســطو وغيره : ان الأشــخاص توجد وتفنى وأما الأنواع فهى باقية لا تزول . وهذا باب آخر لا يغاير بالمرة ما استنتجوا منه ، كما أخطئوا فى قولهم عنه أنه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر فى صوره والكل يرجع

(١) هو الفيلسوف درابر الامريكى .

اليه بمعنى أنه يفنى فى ذاته ولا يبقى فى العالم باق آخر . وهو يقرب من قولهم السابق . فان ابن رشد كان مسلما يعرف أن الاسلام لا ينافى العلم وانما ينافى هذا الضرب من الوهم ، الذى لم يسقط فيه أحد الا من عثرة فى طريق العلم ، أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأى أفاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التى بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأى اليه كما سبق بيانه ، ولكنى لا أنكر نسبته لو نسب الى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلاميذ ابن رشد فان فى كلامه ما يدل على ذلك .

ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التى تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر ، مقبورة بين جدران المكاتب ، أو مخزونة فى بعض الرءوس — كأنها أحجار ثمينة فى بعض الخزائن ، لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها — صـارت عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الأرواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازا للقوى البشرية يسوقها الى كمالها الذى أعدت له . وليس فى الأوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر أن الفضل — فى اخراج أوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العـلم ، وفى تعليمها كيف تنظر وكيف تتفكر ، وفى معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصـلان اللذان ينبنى عليهما العلم — انما هو للمسـلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوها اليهم وأدخلوها من أسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسـا عليهم . وكان من حظ العلم العـربى والأدب المحمدى عندما دخلا الى ايطاليا أن البـابا كان غائبا لأن كرسيه كان قد انتقل الى فرنسا فى افنيون نحو سبعين سـنة ، فدب العلم الى شمال ايطاليا واستقر به القرار هناك ، ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا فى القـرن الثانى عشر وقد رصت بالبـلاط على نحو ما رصت به مدن أسبانيا » اهـ .

ويقول آخر : « لا أدرى كيف أعطانا الاسلام فى مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد أفراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحى اثنى عشر قرنا فى أوربا ولم تمنحنا فلكيا واحدا » .

هذا النماء والذكاء العلمى لم يكن خاصا بطائفة دون طائفة بل كان الناس فى التمكن من تناوله سواء ، وانما كان التفاضـــل بالجد والعمل ، والفضل فى ذلك كله لحلم الخلفاء وأعمالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته ، قال بعض فلاســفة الغربيين قولا يعــرفه الحق وتثبته المشــاهدة : « ان شعوب الأرض لم تر قط فاتحا بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحى الاسلام على اختلافهم) ولا دينا بلغ فى لينــه هذا الحد » .

تشجيع العلم والعلماء

ان الخلفاء الذين يقال عنهم : انهم رؤساء دين وحكام سياسة معا كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها ، كانوا العالمين العاملين . كان خليفة كالمأمون يضطهد أحيانا أعــداء الفلسفة ، وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا فى سجنه الشهور أو السنين ، لأنهم كانوا يعادون الفلسفة ظنا منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده ، هل رأيت فى غير الاسلام رئيسا دينيا يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ .. لعلك لا تجده أبدا .

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والأمراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم ، وأضرب المثل بالشيخ أبى العلاء المعرى ، لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة .

يذكر عــلى بن يوسف القفطى أن صــالح بن مرداس — صاحب حلب — خرج الى المعرة وقد عصى أهلها عليه ، فنازلها وشرع فى حصارها ورماها بالمنجنيق ، فلما أحس أهلها بالغلب ، ســعوا الى أبى العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم ، فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ، ثم قال : ألك حاجة ؟ . قال : الأمير — أطال الله بقاءه — كالسيف القاطع لان مسه ، وخشن حده ، وكالنهار البالغ ، قاظ وســطه

وطاب برده (خذ العفو وأمر بالعـرف وأعرض عن الجاهلين) فقال له صالح : قد وهبتها لك ، ثم قال : أنشدنا شيئا من شعرك لنرويه ، فأنشده على البديهة أبياتا فيه ، فترحل صالح . فانظر كيف وهب الأمير بلدا عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف .

ولو ذكرت ما نال العلماء والفلاسفة عند الأمراء والخلفاء لطال بى المقال أكثر مما طال ، وفيما سبق كفاية لمكتف .

ازالة شبهتين

قد يتوهم قوم أن الاضـطهاد قد يظهر فى مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر ، وهمس بعضهم فى آذان بعض ، وتغامزهم على أهل الفضـل ، ولمزهم اياهم بالألقاب ، بل واحتقارهم فى بعض الأحيان . وهذا النوع عند المسلمين بلا نكير . وهو خطأ ظاهر لأن هذا النوع — مما يكره أهل العلم — لا تخلو منـه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ، ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها ، فان القائمين على عقيدة الكاثوليك الى اليوم فى أرض فرنسا نفسها ، يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة للكنيسة ،ويكتبون ما يوهن قواعدها وقد يختلق عليهم أحزاب الكاثوليك ما لم يقولوه ، ويرون أن النظر فى كتبهم لا يجوز فى شريعة الدين ، ونحن لا نرتاب فى أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسـفة رائجة عندهم ، ولكنه ليس من الاضطهاد فى شىء ، وانما هى نفرة الانسان مما لا يعرف ، مع ترك صاحبه وشأنه يمضى فى سبيله الى حيث يشاء .

يقول آخرون : ان التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه فى فكره ، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به الى منتهى ما يبلغ به ، وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة .

وأقـول : ان كثيرا من الغلو اذا انتشر بين العامة أفسـد نظامها واضطرب أمنها ، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله (١) فتضطر السياسة للدخول فى الأمر لحفظ أمن العامة ، فتأخذ صاحب الفكر ، لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه ، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه ، مع أن غيره فى غنى عما يراه هو حقا له ، وتخشى الفتنة اذا استمر مدعى الحرية فى غلوائه ، فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينفى منهم المجتمع ، صونا له عما يزعزع أركانه . ونحـن نرى الفلسفة اليـوم تضطهد الدين هـذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسـية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة ؟ .. وألا ينشأ شىءمنها الا باذن من الحكومة ، ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح ، وقد ينفى من البلاد كما نفى كثيرون فى سنين سابقة (٢) ولكن هل يسمى هذا اضطهادا ؟ .. كلا ، انما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضـطهاد رؤسـاء الاصلاح بعـدها فى أول نشأتهم .

ماذا يقول القائلون ؟ .. ان التعليم عند المسلمين كان غريبا أمره ، يكاد يكون خفيا سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسـجد ، يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلموالمحدث والنحوى والمتأدب والفيلسوف والفلكى والمهندس ، ينتقل الطالب من بين يدى الفقيه ليجلس بين يدى الفيلسوف ، ومن مجلس الحـديث الى مجلس الأدب ، واذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها فى الاقناع والالزام ، وسقطت قيمة الغلو فى التعبير ، وأخذ التسامح بينهم مأخذه .

---

(١) ذكر امام الحرمين فى كتابه « الشامل » فى أصول الدين انه كان بين الحلاج والجنابى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة ، وان ذلك هو السبب الحقيقى فى قتل الحلاج .

(٢) اغرب من هذا أن أحد الأساتذة فى جامعة امريكية قرر فيها نظرية دارون المعروفة فأنكرها عليه جمهور الطلبة لمخالفتها للتوراة فطرد من المدرسة .

كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة فى أصول مذهبه ، ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخارى صاحب الصحيح ، وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذى منزلة عنده ، حتى قال له يوما وهو خارج من بين يديه : « رميت لكل الناس حبا فلقطوا الا اياى يا عمرو بن عبيد » فانظر كيف كان لامام من أئمة السنة أن يصل سنده فى الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى فى ذلك بأسا ! ..

اذا عد عاد بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة فى الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو فى الدين ، فما عليه الا أن ينظر فى أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذى أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وان الغيرة عليه ليست هى الباعث لهم على الوشاية بهم ، وطلب تنكيلهم ، وانما تجد الحسد هو العامل الأول فى ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع الا على قاضى قضاة كابن رشد (ورجوع الحاكم الى العفو عنه وانزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير ، أو جليس خليفة أو سلطان ، أو ذى نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لايذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض ، لاهلاك بعضهم بعضا ، كما يشهد به العيان ، ويحكى لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدودا من معنى اضطهاد الدين للفلسفة ، لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه . وانما ذلك الاضطهاد هو الذى يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة أو ظن المخالفة للدين فى شىء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع فى الاسلام ، اللهم الا أن يكون حادث لم يصل الينا .

هذه طبيعة الدين الاسلامى عرضت عليك فى أهم عناصرها ومقومات مزاجها . وهذا كان أثرها فى العالم الشرقى والغربى وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك المخالفين أن يحتموا به

متى رضوا بأن يستظلوا بظله ، هل فى هذا خفاء على ناظر ؟ .. وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ؟ أفلا يبسم الاسلام عجبا وهو فى أشد الكرب لعقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ، ان لم يحسبه فى أحبائه ، عندما يراه يسدد سهمه اليه ، ويجور ، كما يجور الجائرون فى حكمه عليه ؟ .

الإسلام في أوائل القرن العشرين
الاحتجاج بالمسلمين على الإسلام

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا أن طبيعة الاسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقى وأنه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ، ولا احراق ، ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومى العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أو ليس تبعا لهم ؟ .. أفلا يكون للأديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ .. ألم يسمع بأن رجلا فى بلاد اسلامية غير البلاد المصرية (١) كتب مقالا فى الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ما ذهب اليه أئمة المسلمين كافة ، ومقالا بين فيه رأيه فى مذهب الصوفية ، وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزىء به أو ما يقرب من هذا — وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله — فلما طبع مقاله فى مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الأثواب العباعب ، وقالوا : انه مرق من الدين ، أو جاء بالافك المبين ، ثم رفع أمره الى الوالي فقبض عليه وألقاه فى السجن ! .. فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه ، بين يدى عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف ، الخ ما يقال فى الشكوى فأجيب طلبه ، لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الأمر هناك أيضا بسجنه ولم يعف عنه الا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل الا ما يتفق مع أصول الدين ، ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب .

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى (والد السنوسى صاحب الجغبوب) كتب كتابا فى أصول الفقة زاد فيه بعض مسائل على أصول

(١) هذا الرجل هو السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى الشهير رحمه الله .

المالكية ، وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد روى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم فى علماء الجامع الأزهر الشريف (١) فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الأستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة لو لاقاه وانما الذى خلص السنوسى من الطعنة ، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسى للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكى .

هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر فى الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الأزهر من المقالات الطويلة الأذيال الواسعة الأردان ، فى استهجان ادخال علم تقويم البلدان (الجغرافية) بين العلوم التى يتلقاها طلبة الجامع الأزهر ؟ .. وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وأنه انما يريد الغض من علوم الدين (٢) ألم تنشر فى العام الماضى فصول بأقلام بعضهم تشير الى مطعن فى عقيدة البعض الآخر وارادة التشهير به من أنه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟ .

ألم يحمل الينا الرواة ما عند علماء الأفغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ما ورثوا عن آبائهم الأقربين ، واقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم أصبعا عما كان عليه سلفهم ، وان كان فى البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم فى حكومة المغرب من الغلو فى التعصب ، والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء فى شرب الدخان ، أو بالقتل فى كلمة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون ؟

(١) هو الشيخ عليش الذى كان ينكر على السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أيضا طريقتهما فى تحقيق المسائل الشرعية على طريقة السلف .

(٢) يعنى الأستاذ بهذا نفسه فهو الذى اشار بتعليم هذه العلوم .

ثم ألا يتخيل المتأمل أنه يســمع من جوف المستقبل صخبا ولجبا ، وضوضاء وجلبة ، وهيعات مضطربة ، اذا قيل انه ينبغى لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفا من مبادىء الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعى ؟ ألا تقوم قيامة المتقين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هــذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا الى ألا يبقى شىء عرف له اسم فى اللغة الا ألصقوه بهذه البدعة فى زعمهم .

هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال انها عارض عرض عليهم ، أو مرض من الأمراض الوافدة اليهم ؟ .. لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم ، خصوصا عندما يجد الوحدة فى الصفات ، والشمول فى جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلما من شاطىء الاطلانطيقى ، وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من فميهما وهى : « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وان نطق به الكتاب ، واجتمعت عليه الآثار .

اللهم الا فئة زعمت أنها نفضت غبار التقليد ، وأزالت الحجب التى كانت تحول بينها وبين النظر فى آيات القرآن ومتون الأحاديث ، لتفهم أحكام الله منها ، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صدرا من المقلدين ؛ وان أنكرت كثيرا من البدع ، ونحت عن الدين كثــيرا مما أضيف اليه وليس منه ، فانها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به ، بدون التفات الى ما تقضيه الأصول التى قام عليها الدين ، واليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية السليمة أحباء (١) .

---

(١) انه يعنى بهذه الفئة الوهابيين ، فهو يحمــد منهم ترك البدع والاهتداء بالسنن وتقديم الأثر ، على آراء البشر ، ولكنه ينكر عليهم ضيق العطن دون العناية بما أرشدت اليه النصوص من علوم الأكوان ، ومقدمات المدنية والعمران .

هل يمكن أن ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء فى فهمها . واذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأى فيها أحجموا عن ابداء الرأى ، واجتهدوا فى تحويلها عن حقيقتها الى أن تتفق مع قول معروف فى كتاب من الكتب ، حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدول العثمانية وأراد الالتحاق بأحد الأروقة فى الجامع الأزهر فوقع الشك : هل بلده مما لأهله استحقاق فى ذلك الرواق على حسب نص الواقف ؟ .. فقال قائل لشيخ الرواق : ان كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل فى شرط الواقف . فقال : اننى لا أقتنع بما فى تلك الكتب ، وانما الذى يصح أن آخذ به هو أن يكون فقيه (ممن مات) قال ان هذا البلد من قطر كذا ، وهو الذى وقف الواقف على أهله . واذا قيل لأحدهم : ان الأئمة أنفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولا لبيان ما يحويه كل قطر وبيان الحدود التى ينتهى اليها ، وان أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء فى هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الأخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال : انما أريد نصا فقهيا ، لا دليلا عقليا .

واذا قيل لهم : اختلت الشئون ، وفسدت الملكات والظنون ، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت أكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة ، وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وساكنتكم الحاجة ، وألفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث فى أسباب ما كان سلفكم عليه، ثم علل ما صرتم وصار الناس اليه ؟ .. قالوا : ذلك ليس الينا ، ولا فرضه الله علينا وانما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فان لم يفعلوا — ولن يفعلوا — فذلك لأنه آخر الزمان ، وقد ورد فى الأخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة ، وأن الاسلام لابد أن يرفع من الأرض ،

ولا تقوم القيامة الا على لكع ابن لكع . واحتجـوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولا تدع فى نفس حركة الى عمل ؟ !

رأى رينان فى الاسلام

هذا الجمود — الذى لو أردنا بيان ما امتد اليه من طيات الأفكار ، وثنيات الوجـدان ، لكتبنا فيه كتابا — هو الذى حمـل المسيو رينان الفيلسوف الفرنسى المشهور أن يقول فى عرض كلام له فى تساهل المذاهب الدينية مع العـلم ، نقلته عنه الجامعة « على أننى أخشى أن يثبت الدين الاسلامى وحده فى وجه هذا التسامح العام فى العقائد ، ولكنى أعرف أن فى نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامى القديمة وفى بضعة من رجال الآستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة ، تدل على فكر واسع ، وعقل ميال الى المسامحة ، الا أننى أخشى أ نتختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء ، فاذا اختنقت قضى على الدين الاسلامى . ذلك أنه من الثابت الآن أمران — الأول : أن التمدن الحـديث لا يريد اماتة الأديان بالمرة لأنها تصلح أن تكون وسيلة اليه . والثانى : أنه لا يطيق أن تكون الاديان عثرة فى سبيله . فعلى هذه الأديان أن تسـالم وتلين ، والا كان موتها ضربة لازب » هذا كلام رينان بتصرف لفظى قليل .

فمن أين يكون هذا الجمود العام ، الذى سمح للطاعنين أن يحكموا على الاسلام ، بأنه عثرة فى طريق المسلمين يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحا فى سعيهم ، أو نجاحا فى أعمالهم ؟ .. من أين يكون هذا الجمود ان لم يكن من طبيعة الدين ؟ .. ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث ان لم يكن ناشئا من أصول الدين ؟ .. فان لم تسلم بأن هذا اضطهاد ، وأن الاضطهاد من لوازم الدين الاسلامى ، فعليك أن تسلم بأنه عداوة للعلم أو اشمئزاز منه . أو استهجان له ، أو احتقار لشأنه . وأحد هذه الأمور كاف اذا عم بين المسلمين فى أن ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يحرمهم كل نفع . وأن يحقق فيهم ما تنبأ به رينان وغيره .. فما قولك فى هذا ؟ .

الجواب

أقول هذا كلام فيه شية من الحق ، ولمعة من الصدق ، أما مانسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين ، فان حملة العمائم انما حـركهم الحسد لا الغيرة . وأما صـدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد ، فتنتشر عدواه فيتنبه غافل آخـر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسرى العدوى من الدين الى غير الدين — الى آخر ما يكون من حرية الفكر (يعوذون بالله منها) .

فان شئت أن تقول : ان السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالى من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل فى السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس .

يدلك على أن العقوبة سياسية ان الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين . لا تقل : ان هذه السياسة من الدين ، فانى أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا أجمعين ، أن هذه السياسة من أبعد الأمور عن الدين ، كأنها الشجرة التى تخرج فى أصل الجحيم « طلعها كأنه رءوس الشياطين . فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم ان لهم عليها لشـوبا من حميم ★ ثم ان مرجعهم لالى الجحيم ★ انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون » .

جمود المسلمين وأسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب الى الاسلام ، وقد رأيت صورة الاسلام فى صفائها ونصوع بياضها ليس فيها

ما يصح أن يكون أصـــلا يرجع اليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته « رينان » وغيره . وانما هي علة عرضت على المسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الاسلام في أفئدتهم ، وكان السبب في تمكنها من نفوسهم واطفائها لنور الاسلام من عقولهم ، هو السياسة كذلك ، هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين .. هو السياسة .

لم أر كالاسلام دينا حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطانا تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعده ، وخفي على الغافلين قصده ، وان وضح للناظرين رشـــده ، أكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خشارة (١) من الآخرين ، لا هم فهموه فأقاموه ، ولا هم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بنسبه وقالوا : نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه في شيء الا كما يكون الجهـــل من العلم . والطيش من الحـــلم ، وأفن الرأى من صـــحة الحكم .

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سببا فيما صار اليه أهله : كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصـــار علما عربيا ، بعد أن كان يونانيا ، ثم أخطأ خليفة في السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا الى ما كان يظنه خيرا له . ظن أن الجيش العربي قد يكون عونا لخليفة علوى ، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وسلم فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك وغيرهما من الأمم التي ظـــن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها باحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه من الملك ، وفي ســعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجميا .

---

(١) الخشارة بالمعجمتين كالحثالة وزنا ومعنى : الردىء وما لا خير فيه من كل شيء . من خشارة الشعير وهي ما لا لب له وخشارة التمر وهي رديئة والشيص منه ، وحثالة الطعام ما سقط منه اذا نقى .

خليفة عباسى أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه — وبئس ما صنع بأمته ودينه — أكثر من ذلك الجند الأجنبى وأقام عليه الرؤساء منه ، فلم تكن الا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسلام والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شى الى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل الهه معه يعبده فى خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ، ومنهم من تولى أمره .

أى عدو لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سيرهم ؟ .. فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيرا من أعوانهم أن يتدرجوا فى سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ، ليعدوا من قبيلة ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصا ليكملوه ، أو مريضا ليعللوه ، أو متداعيا ليدعموه ، أو يكاد ينقض ليقيموه .

نظروا الى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا فى اقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس فى الضلالة وقرروا أن المتأخر ، ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنه لا

نظر لهم فى الشئون العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لايعنيه ، وأن مايظهر من فساد الأعمال ، واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وانما هو تحقيق لما ورد فى الاخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة فى اصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك الى الله ، وما على المسلم الا أن يقتصر على خاصة نفسه . ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفى الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم فى بث هذه الأوهام .

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم ، وغلا للأيدى عن العمل . والعامل الأقوى فى حمل النفوس على قبول هذه الخرافات انما هو السذاجة ، وضعف البصيرة فى الدين ، وموافقة الهوى — أمور اذا اجتمعت أهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال .

هذه السياسة — سياسة الظلمة وأهل الأثرة — هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات ، وأخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات ، فجل ما تراه الآن مما تسميه اسلاما فهو ليس باسلام ، وانما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذى ذكرته وعدوه دينا ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه ، فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام ، وانما هو شىء آخر سموه اسلاما ، والقرآن شاهد صادق « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » يشهد بأنهم كاذبون ، وأنهم

عنه لاهون ، وعما جاء به معرضون ، وسنوفى لك الكلام فى مفاسد هذا الجمود ، ونثبت أنه علة لابد أن تزول .

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين فى المحافظة عليه ، وولع شـــهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاســـد يطول بيانها ، وانما يحسن اجمال القول فيها .

كان الدين هو الذى ينطلق بالعقـــل فى ســـعة العلم ، ويسيح به فى الأرض ، ويصعد به الى أطباق السماء ، ليقف به على أثر من آثار الله ، أو يكشف به سرا من أسراره فى خليفته ، أو يستنبط حكما من أحـــكام شريعته ، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء ، وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلـــا وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه ســـار سير التدريج .

جناية الجمود على اللغة

أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العـــربية وأساليبها وآدابها فان القوم كانوا يعنـــون بها لحاجة دينهم اليها — أريد حاجتهم فى فهم كتابهم الى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير اليه هيئة تراكيبها — وكانوا يجدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربا بملكاتهم ، يساوون من كانوا عربا بسلائقهم . فلما لم يبق للمتأخر الا الأخذ بما قال المتقدم ، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا الى دليله ، ولو نظروا فى الدليل فرأوه غير دال له بل دالا لخصمه ، بأن كان عرض له فى فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر

الدين عصمتهم ، لخطئوا نظرهم وأعموا أبصارهم ، وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا الى غير ما ذهب اليه متقدمنا ، وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية . فأية حاجة له بعد ذلك الى اللغة العربية نفسها ، وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم ، وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الأولون فى كلامهم .

وهكذا .. كل متأخر يقصر فهمه على النظر فى كلام من يليه وهو ، غير مبال بسلفه الأول ، بل و لابما كان يحف بالقول من أحوال الزمان ، فهو لا ينظر الا اللفظ وما يعطيه ، فتسقط منزلته فى تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس الى ما نراهم عليه اليوم ، جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين فى النحو وفنون البلاغة ، وان لم يصلوا منها الى غاية فى فهم ما وراءها فدرست علوم الأولين وبادت صناعتهم ، بل فقد كتب السلف الأولين رضى الله عنهم ، وأصبح الباحث عن كتاب «المدونة» لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب «الأم» للشافعى رحمه الله تعالى أو بعض كتب الأمهات فى فقه الحنفية كطالب المصحف فى بيت الزنديق . تجد جزءا من الكتاب فى قطر وجزءه الآخر فى قطر آخر ، فاذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ما عرض عليها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها .

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت فى وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك منازل المتقدمين ، وعدم الاعتبار بما ورد فى الأخبار من أن المبلغ ربما كان أوعى من السامع ، وأن هذه الأمة كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخره ، وقلة الالتفات الى أن ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله . لا ريب أن القارىء يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة ، يكفيه من ذلك أنه اذا تكلم بلغته — لغة دينه وكتابه وقومه — لا يجد من يفهم ما يقول ، وأى ضر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه الى العقول ؟

جناية الجمود على النظام والاجتماع

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الأمة وايقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع فى الدين . كان اختلاف السلف فى الفتيا يرجع الى اختلاف أفهام الأفراد ، وكل يرجع الى أصل واحـد لا يختلفون فيه ، وهو كتاب الله وما صح من السنة ، فلا مذهب ولا شيعة ، ولا عصبية تقاوم عصبية ، ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخـر لأسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم ، ثم جاء أنصار الجمود فقالوا : يولد مولود فى بيت رجل من مذهب امام فلا يجوز له أن ينتقـل من مذهب أبيه الى مذهب امام آخـر . واذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رسول الله ملتمس » لكنه قول باللسـان ، لا أصل له فى الجنان ، ثم كانت حروب جدال بين أئمـة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها فى تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة ، لكنا اليوم فى شأن غير ما نحن فيه ، يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم فى بعض ما لا يسمح به أصـل من أصـول الدين الذى ينتسبون اليه . يضلل بعضهم بعضـا ، ويرمى بعضهم بعضا بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن . ولكنه الجمود ، قد يؤدى الى الجحود .

كان الاختـلاف فى العقائد على نحو الاختـلاف فى الفتيا تخالف أشخاص فى النظر والرأى ، وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالى بمخالفته له فى رأيه ، مسجدهم واحد وامامهم واحد وخطيبهم واحد ، فلما جاء دور الجمـود — دور السياسة — أخـذ المتخالفون فى التنطع وأخذت الصلات تتقطع وامتازت فرق وتألفت شيع كل ذلك على خلاف ما يدعو اليه الدين ، وقد بذل قوم وسعهم فى تمييز الفرق تمييزا حقيقيا فما استطاعوا وانما هو تمييز وهمى ، وخلف فى أكثر المسائل لفظى . وانما هى الشهوات وضروب السياسات . أشعلت نيران الحرب بين المنتسبين الى

تلك الشيع حتى آل الأمر الى هذه الفرقة التى يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها .

قال قائل (١) من عدة سنين : انه ينبغى أن يعين القضاة فى مصر من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها ، وقال : ان الضرورة قاضية بأن يؤخذ فى الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعى تيسيرا على الناس ودفعا للضرر والفساد : فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئا ليس من الدين ، مع أنه لم يطلب الا الدين ، ولم يأت الا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه العمل فى أقطار العالم الى ما قبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؟ .. لكن هو جمود المتأخر على رأى من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع الى ما وراءه . أو هى السياسة تحل ما تشاء وتحرم ما تشاء ، وتصحح ما تشاء ، وتعطل ما تشاء ، والناس منقادون اليها بأزمة القوة أو الأهواء .

جناية الجمود على الشريعة وأهلها

هذا الجمود فى أحكام الشريعة جر الى عسر حمل الناس على اهمالها : كانت الشريعة الاسلامية — أيام كان الاسلام اسلاما — سمحة تسع العالم بأسره ، وهى اليوم تضيق عن أهلها ، حتى يضطروا الى أن يتناولوا غيرها وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى اليها ، وأصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون الى سواها .

---

(١) القائل هو الامام الكاتب وله فيه اقتراح رسمى فى تقريره الذى وضعه لاصلاح المحاكم الشرعية .

صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضـوا بجهلها عجـزا عن الوصول الى علمها ، فلا ترى العارف بها من الناس الا قليلا لا يعد شيئا اذا نسب الى من لا يعرفها . وهل يتصـور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ؟ .. فوقع أغلب العامة فى مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها . وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف .

سألت يوما أحد المدرسين فى بعض المذاهب : هل تبيـع وتشترى وتصرف النقود على مقتضى ما تجد فى كتب مذهبك ؟ .. فأجاب أن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وانما يفعل ما يفعل الناس . هكذا فعل الجمود بأهله ، ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة يحيا بها الناس لفعلوا ، ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء .

تعلم ما وصل اليه الناس من فسـاد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة لو سألت عن سببه فى القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين : اما فقد العارف بالشريعة والدين وسـقوط القرية أو المدينة فى جاهلية جهلاء يرجـع بعض أهلها الى بعض فى معرفة الحلال والحـرام وليس المسئول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون ، واما عجز العارف عن تفهيم من يسأله ، لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة ، فهو اذا سئل يقرأ كتابا أو يسرد عبارة يصعب على السـامع فهمها وعلى المتكلم افهامها . وذلك للحرج الذى وضع فيه نفسه ، فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فاذا قلت للعارف : تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك ، واعل بنفسك الى أن تفهم الغرض من قول امامك فتجد لأصله انطباقا على هذه الحادثة مثلا وان لم يأت ذكرها بنفسها فى قوله أو قول من جاء من بعده من أتباعه قال : سبحان الله : هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ .. يريد ألا يأتى شيئا الا ما أتى به شيخه الذى أخذ عنه يدا بيد ، ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه فى بعض رأيه ثم

اذا حاججته فى ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقا ، وأنك تدعوه الى الخروج من دينه ، ولا يدرى المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه ، وانه يتهيأ للخروج منه ، نعوذ بالله تعالى .

كان كلام بينى وبين أحد المدرسين فى أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الأخلاق وصالح الأعمال ، خصوصا عند القاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد ، فقال لى : انه لا فائدة فى ذلك قطعا ، وهو تعب فى غير طائل . فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهى المنهى ، فقال : اذا تحققت استحالة المنفعة كان الأمر والنهى لغوا .

فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد فى النفوس غايته كما يزعم ؟ .. ولم ينظر فى الوسيلة الى اقتلاع هذا الفساد ، مع أن الدين يدعوه الى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل الى اصلاحه ، هذا كله لأنه لم ير نفسه أهلا لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه ، أو لم يرشده اليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئا من الأوامر الالهية التى وردت فى النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر ، وأن اليأس من روح الله انما يكون من القوم الكافرين أو الضالين .

لا بل اذا قلت له : ان هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه ، أو ان هذا الكتاب الذى تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه وغيره أفضل منه .. كان يظن أن قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عما تعوده نوعا من الاخلال بالدين . وقد يقيم عليك حربا يعتقد نفسه فيها مجاهدا فى سبيل الله .

اذا قلت له : ان دروس السلف كانت تقريرا للمسائل واملاء للحقائق على الطلاب ، ولم يكن لأحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ، ولم يكن بأيدى الطلبة الا الأقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه

أساتذتهم . وقد يعترف لك بصحة ما تقول ولكنه يستمر فى عمله ، اعتمادا على أنه وجد الناس هكذا يعملون ، فهل يخطر ببال عاقل أن هذا الجمود من الدين ؟ وهل يرتاب من له أدنى ادراك فى سوء عقباه على الدين وأهل الدين ؟ .

جناية الجمود على العقيدة

ذلك جمودهم فى العمل ، وأشـد ضررا منه الجمود فى العقيدة : نسوا ما جاء فى الكتاب وأيدته السنة من أن الايمان يعتمد اليقين ، ولا يجوز الأخذ فيه بالظن ، وأن العقل هو ينبوع اليقين فى الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة ، وأن النقل ينبوع له فيما بعد ذلك (١) من علم الغيب كأحوال الآخرة وفرض العبادات وهيآتها ، وأن العقل ان لم يستقل وحده فى ادراك ما لا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة فى الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز أن يرسـل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول — نسوا ذلك كله وقالوا : لابد من اتباع مذهب خاص فى العقيدة ، وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا كما قلنا ولم يكفهم الالزام باتباع مذهب خاص فى نفس المعتقد ، بل ذهب بعضـهم الى أنه لابد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول الى ذلك المعتقد فيكون التقليد فى الدليل كالتقليد فى المدلول ، وكأنهم لذلك جعلوا النقل عمادا لكل اعتقاد وياليته النقل عن المعصوم ، بل النقل ولو عن غير المعـروف ، فتقررت لديهم قاعدة : ان عقيدة كذا صحيحة ، لأن كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك ، ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كـدرة ولا متزعزعة . وقد سرى ذلك من قراء المقلـدين الى

---

(١) يعنى أن الاخذ بما جاء به الرسل متوقف بالفعل — وفقا لنظر العقل على التصديق بأن الله ارسلهم ، فهو لا يكون الا بعده . وهذا قطعى بالنسبة الى من يدعى الى الدين من الكفار والى اقامة الحجة على المنكر ، واما الناشىء فى الاسلام فلا ترتيب عنده فى ذلك فهو يأخذ العلم بالله وصفاته وأدلتها العقلية من القرآن مباشرة .

أميهم فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم ، وان لم يكن فى حق الأمر من أهل العلم ، وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم .

انسحب التساهل فى الاعتماد على النقل الى الخروج عما اخطته لنا السلف رضى الله عنهم ، فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمتحنون قوله ، حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة . ولكن جمود المتأخر على ما يصل اليه من المتقدم صير النقل فوضى ، فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للأخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب ، حتى شاع بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث ، ماترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين الى حين . وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشئوه سوء الاعتقاد الذى نشأ من رداءة التقليد ، والجمود عند حد ما قال الأول بدون بحث فى دليله ولا تحقيق فى معرفة حاله ، واهمال العقل فى العقائد على خلاف ما يدعو اليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس — لذلك — عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين فى اقتلاعها من أنفسهم الى عناء طويل ، وجهاد شديد ، وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم من يعرف ومن لا يعرف — وما أكثر من ينصر أعداءه اليوم وما أقلهم غدا ان شاء الله .

سأل سائل الاستاذ شيخ الجامع الازهر عن حكم عمل من الأعمال الجارية فى المسجد يوم الجمعة — ومنزلة الشيخ من الرياسة فى أهل العلم والدين منزلته — فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال : ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . أتظن أن المستفتى أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ .. كلا .. حدث قيل وقال ، وكثرة تسآل ، ودخلت السياسة ثم قيل : ان الزمان ناصر الحقيقة ، وقد وجدنا الأمر كذلك من قبلنا . وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ؟ .

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها ووكلت الى أناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالأدب

وقد غرسوا فى أذهان الدهماء شر الغرس ، ولا تجنى الأمم منه الا أخبث الشر . فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصرح به فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح فى وجهه : « ما سمعنا بهذافىآبائنا الأولين » ويريد من آبائه الأولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضلية حتى صار ارشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشقها على طالبه .

ماذا يمكن أن أقول ؟ .. أصبح الرجل يرتكب فى وسائل العبادة أقبح المنكرات فى الدين واذا دعى الى ترك المنكر نفر وزمجر وأبى واستكبر . أنظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم فى الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم النساء والأطفال وهم يظنون أنهم يتقربون الى الله بما يفعلون .

هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين دينا ، ويصعب على حفاظ الدين ارشادهم بفضل جمودهم على ما ورثوا من ملقنيهم بدون تعقل ،

فهذا معظم الأمة تراه قد تملص من أيدى منذريه . ولو شاءوا لأقبل كل منهم على صاحبه ، وهو أيسر شىء على حملة الشريعة ، وما هو الا أن يرجعوا الى ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته .

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم ان الجمود قد أحدث لنا فريقا آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة اما فى مدارس الحكومات الاسلامية واما فى المدارس الأجنبية داخل بلادهم أو خارجا عنها . لا أتكلم عن هذا الفريق فى بلاد القرم أو القوقاز أو سمرقند أو بخارى أو الهند ، فانى لا أعرف كثيرا من أحوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيرا وأرجوا أن يكون منهم لقومهم ما ينتظره الاسلام من العارفين به ، فقد رأيت أفرادا قليلين من هؤلاء تعلموا فى

البلاد االأوربية ودرسوا العلوم فيها درسا دقيقا ، وهم أشد تمسكا بلب الدين الاســلامى وروحه من كثير ممن يدعون الورع والتــقوى ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صــحيحة من العادات التى أورثها دينهم قومهم ، فنعم المتعلمون هؤلاء ، أكثر الله منهم .

وانما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى مصر وسورية وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الاسلام وسعة حلمه للعلم أباحتا للمسلمين أن يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلمفى المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم ، أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين ، بل فى مدارس لم تبن الا لترويج دين غير الدين الاســلامى وأباحتا لغير آباء هؤلاء التلامذة أن يسكتوا وألا ينكروا عليهم عملهم ، ما دامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة .

جمود تلاميذ المــدارس الاجنبية

هؤلاء التلاميــذ ان كانوا فى مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدين الاسلامى فيها ، بل ربما يعلم فيها دين آخر ، فقد يسرى الى عقائدهم شيء من الضــعف ، وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتــل مكانها عقائد أخرى تناقضــها ، كما شــوهد ذلك مرارا . ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الاقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل أو الزوال ، وكيف يكون لأولئك الآباء شيء من هــذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل الى فهمها من ينقطع لتعلمها ، فضلا عن أولئك المساكين ، بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم ولكن الجمود صير كل شيء صعبا وكل أمر غير مستطاع .

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون فى مدارس أجنبية ، يخرجهم من دينهم من حيث لا يشــعرون . ويا ليتهم

يستبدلون بالدين رادعا آخر من الأدب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم ، أو كما يروجه بعض من لا يريدون الخير بها ، ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع ، اللهم الا زاجرا عن خير أو دافعا الى شر ، فاتخذوا الههم هواهم وامامهم شهوتهم ، فهلكوا وأهلكوا ، ومن هؤلاء ورثة الأغنياء الذين تصيح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم ، فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة ، وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم .

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والاهلية

أما المتعلمون فى مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الدينى فيها شىء من البقية فهؤلاء ينشئون على شىء من المعارف فى الفنون المختلفة ، وتقرر لهم حقائق فى الكون السماوى أو الأرضى أو فى الاجتماع الانسانى ، ومن عرف شيئا انطلق لسانه بالخوض فيه ، وقد يسمه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على ألفاظ سمعها ، فلو سمع شيئا غيرها أنكره وظنه مخالفا للعقيدة الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ، ويرميه بالمروق من الدين ، هذا والمتعلم لا يشك فى قوة دليله ، ولجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه ، فينفر من دينه نفرته من الجهل ، ولو قال له قائل : ارجع الى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وخصمك ، حار لا يدرى الى أى كتاب يرجع ، ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التى ورثها القوم على ما فيها من تشعيث وتعقيد وأبقوها كما ورثوها ، فيعود الى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه .

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء أن الدين شىء غير مفهوم ، بل قد يعده بعضهم خرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانبا ، ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ، ويلتمسون لهم آدابا فى غيره ، وقلما يجدونها ، فتراهم

وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم ، فلا يطلبـون الا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه ، ويسـلكون الى ذلك أى طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة « ما دام الشرف محفوظا » فاذا وجد بينهم من يدعى الوطنية أو الغيرة الملية أو نحـو ذلك ، فانما ينثر الألفاظ نثرا لا يرجع فيها الى أصل ثابت ، ولا الى علم صحيح . ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذى يؤدى الى المفسدة ، وهو يشعر — أو لا يشعر — على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه أو درس عقيدة من عقائده ، فشأنهم كلام فى كلام ، ولبئس ما يصنعون ، ولولا هذا الجمود لوجدوا فى كتب دينهم وفى أقوال حملته ما تبتهج به قلوبهم ، وتطمئن اليـه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم مأدوما بالدين . وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة ، يرجع اليها فى سير الأمة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية .

الجمود علة تزول

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج الى كتاب طويل فنكتفى بما أوجزناه فى الصفات السابقة . ولن يبقى الكلام فى أنه عارض يسكن زواله ان شاء الله تعالى .

قد عرفت من طبيعة الدين الاسلامى بعد عرضها عليك فيما سبق أنها تسمو عن أن ينسب اليها هذا المرض الخبيث — مرض الجمود على الموجود — وكم فى الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ، ولا حاجة الى اعادة ذلك .

ثم اننا أشرنا أيضا الى بعض الأسباب التى جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام ، وأن محدثها اما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه واما محب جاهل يظن خيرا ويعمل شرا . وهذا الثانى كان أشد نكاية وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الاسلام الى سعته الأولى وكرمه الفياض ؟ وينهض بأهله الى ما ذخر لهم فيه ؟ .

جاء فى الكتاب المبين « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ذلك الذكر هو الذكر الحكيم — هو القرآن الذى « أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » هو كما قال : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده ، لم تطل اليه يد عدو مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقى كما نزل ، ولا يضره عمل الفريقين فى تفسيره وتأويله ، فذلك مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفات

المصاحف طاهرا نقيا بريئا من الاختلاف والاضطراب ، وهو امام المتقين ، ومستودع الدين ، واليه المرجع اذا اشتد الأمر ، وعظم الخطب ، وسئمت النفوس من التخبط فى الضلالات ، ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التى أقاموها دونه ولا بد أن تتمزق كلها بأيدى أنصاره . فيبتلج ضياؤه لأعين أوليائه . ان شاء الله تعالى .

هذا الضـياء كان ولا يـزال يلوح لامعه فى حنادس الظلم لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ويحمدون سراهم ، بما عرفوا من نجاح مسـعاهم ، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البـدع وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم وفسدت عقولهم بما حشوها من الأباطيل ، وبما عطلوها عن النظر فى الدليل ، هؤلاء فى عمى عن نوره ، وقلوبهم فى أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقر ، يصيحون بأنهم عمى صم ، فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ، ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون .

هذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ، ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه فى حربه ، بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه فى شىء كما قدمنا .

هؤلاء لابد أن يصيبهم ما أصـاب الأمم قبلهم ، فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، وضيقوا على أنفسهم بدخولهم فى جحر الضب الذى دخلوه (١) ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، فلن يخلص مما قضى الله فى عـذابهم . فقد قص عليهم سير الأولين ، وبين لهم ما أنزل بهم عندما انحـرفوا عن سنته ، وحادوا عن شرعه ، ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا — أحـل بهم الذل ، وضربت عليهم

(١) فى الكلام اشارة الى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » رواه الشيخان وغيرهما .

المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم ، فهل ينتظر المتبعون سنتهم ، السائرون على أثرهم ، أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسابقيهم ؟ وقد قضى بأن تلك سننه ولن تجد لسنته تبديلا ؟ .

لا تزال الشـدائد تنزل بهؤلاء المنتسـبين الى الاسلام ولا تزال القوارع تحـل بديارهم حتى يفيقوا « وقد بدءوا يفيقون من سكرتهم » ويفزعوا الى طلب النجاة ، ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتا بالكريم فى انتظارهم ، يعد لهم وسائل الخلاص ، ويؤيدهم فى سبيله بروح القدس ، ويسير بهم الى منابع العلم ، فيغترفون منها ما يشاءون ، فيعرفون أنفسهم ويشـهدون ما كان قد كمن فيها من قوة ، فيأخـذ بعضهم بيد بعض ، ويسـيرون الى المجد غير ناكلين ولا مخذولين .

ولهذا أقول : ان الاسلام لن يقفه عثرة فى سبيل المدنية أبدا ، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها ، وسـتكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله . وهذا الجمود سيزول ، وأقوى دليل لك على زواله ، بقاء الكتاب شاهدا عليه بسوء حاله ، ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه ، ويدعون اليه ويؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم .

هذا الكتاب المجيد الذى كان يتبعه العلم حيثما سار شرقا وغربا لابد أن يعود نوره الى الظهور ، ويمزق حجب هذه الضلالات ، ويرجع الى موطنه الأول فى قلوب المسلمين ويأوى اليـها ، العلم يتبعه وهو خليله الذى لا يأنس الا اليه ، ولا يعتمد الا عليه .

يقول أولئك الجامدون الخامدون — كما يقول بعض أعداء القرآن : ان الزمان قد أقبل على آخره ، وان الساعة أوشكت أن تقوم ، وان ما وقع فيه الناس من الفسـاد ، وما منى به الدين من الكساد ، وما عرض عليه من العلل ، وما نـراه فيه من الخلل ، انما هو أعراض الشـيخوخة

والهرم ، فلا فائدة فى السعى ، ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة الا الى العدم ولا يصح أن يمتد بصرنا الا الى العدم ، و لاأن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله) .

هؤلاء حفدة الجهل ، وأعوان اليأس ، يهرفون بما لا يعرفون . ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته ؟ .. ان الذى مضى بيننا وبين مبدأ الاسلام (أى الهجرة. ألف وثلاثمائة وعشرون عاما ، وانما هى يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى . وان آيات الله فى الكون — وان كانت تدل على أن ما مضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير — تشهد بأن ما بقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا » .

ان ما بيننا وبين مبدأ الاسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة ، فهل يعد مثل ذلك دهرا طويلا بالنسبة الى دين عام كدين الاسلام ؟ .. ان زمنا كهذا لا يكفى — وقد تبين أنه لم يكف — لاهتداء الناس كافة بهديه . ولم تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرههم وطمعهم ؟ .

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله ، فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواما ، ثم انحرف به أهله عن سبيله ، وساروا به الى ما يرون ونرى ، ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد ، ويأخذ الدين بيد العلم ، ويتعاونا معا على تقويم العقل والوجدان فيدرك العقل مبلغ قوته ، ويعرف حدود سلطته فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين ، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين ، حتى اذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعا ، وقفل راجعا ، وأخذ أخذ الراسخين فى العلم ، الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) فيما روى عنه : « هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح

الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا » واعتبر بعد ذلك بقوله : « فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك ، فتكون من الهالكين ، هو القادر الذى اذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت القلوب اليه لتجرى فى كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهى تجوب مهاوى سدف (١) الغيوب متخلصة اليه سبحانه فرجعت اذ جبهت (٢) معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته » (٣) .

هنالك يلتقى (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل فى سيره داخل حدود مملكته ، متى كان الوجدان سليما ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحا ، اياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقا بين العقل والوجدان (القلب) فى الوجهة ، بمقتضى الفطرة والغريزة ، فانما يقع التخالف بينهما عرضا عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس ، وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطنى (الوجدان أو القلب) من مبادىء البرهان العقلى ، كوجدانك أنك موجود ، ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك .

منحنا العقل للنظر فى الغايات ، والأسباب والمسببات ، والفرق بين البسائط والمركبات — والوجدان لادراك ما يحدث فى النفس والذات من لذائذ وآلام ، وهلع واطمئنان ، وشماس واذعان ونحو ذلك مما يذوقه

(١) السدف جمع سدفة كظلمة لفظا ومعنى .
(٢) جبهه ضرب جبهته ورده .
(٣) هذا الكلام فيه من الصنعة وسمات التوليد ما يدل على انه موضوع على (على كرم الله وجهه) .

الانسان ، ولا يحصيه البيان ، فهما عينان للنفس تنظر بهما ، عين تقع على القريب : وأخرى تمد الى البعيد ، وهى فى حاجة الى كل منهما ولا تنتفع باحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى ، فالعلم الصحيح مقوم الوجدان ، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . والدين الكامل علم وذوق ، عقل وقلب ، برهان واذعان ، فكر ووجدان . فاذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت احدى قائمتيه ، وهيهات أن يقوم على الأخرى ، ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الواحد انسانين ، والوجود الفرد وجودين .

قد يدرك عقلك الضرر فى عمل ولكنك تعمله طوعا لوجدانك ، وربما أيقنت المنفعة فى أمر وأعرضت عنه اجابة لدافع من سريرتك ، فتقول ان هذا يدل على تخالف العقل والوجدان ، ولكنى أقول : ان هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره ، عليك أن ترجع الى نفسك فتتحقق من أحد الأمرين — اما أن يقينك ليس بيقين ، وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك ، فأنت تظنها علما وما هى به ، واما أن وجدانك وهم تمكن فيك ، وعادة رسخت فى مكان القوة منك ، وليس بالوجدان الصحيح ، وانما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعورا منبعه الغريزة وما هى منه فى شىء

لابد أن ينتهى أمر العالم الى تآخى العلم والدين ، على سنة القرآن والذكر الحكيم ، ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى صح معناه « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله » ، وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون وتبعهم الجامدون القانطون ، وليس بينك وبين ما أعدك به الا الزمان الذى لابد منه فى تنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ، وتوضيح المنهج ، وتقويم الأعوج ، وهو ما تقضيه السنة الالهية فى التدريج « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » « انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » « وهو خير الناصرين » .

الإسلام ومدنية أوربا

تمهيد :

لم يبق علينا من الكلام الا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته مجلة الجامعة (١) وهو « ان تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحى فى أوربا وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الاسلامى دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا مع الفلسفة » .

ليس من السهل على أن أعتقد أن أديبا كصاحب الجامعة يقول هذا القول — وهو ناظر الى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا فى هذه المسألة وهى من أهم المسائل التاريخية — وانما هى عين الرضا تناولت من حاضر الحال ومما انتهى اليه سير التاريخ ما تناولت ، ثم أملت على قلبه ما جرى به قلمه .

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحا ؟ .. وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما ؟ .. أم يسمى غل الأيدى عن الشر بوسائل القهر كرما ؟ .. هل تعد مساكنة جناب البابا للملك ايطاليا فى مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين : كرسى المملكة الايطالية وكرسى المملكة البابوية — فى عاصمة واحدة تسامحا من قداسة البابا مع الملك ؟ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمى ذلك تسامحا من الملك مع البابا ، لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة ، ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التى بقيت له من السلطة الملكية ؟ كما أن الأليق به أن يسمى تلك الحالة التى عليها أهل أوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين — تساهلا من العلم مع الدين ، لا تسامحا من الدين مع العلم ، بعدما كان بينهما من المهالك ورضاء الدين بأن يكون تابعا له فى أغلبها .

---

(١) كلام مجلة الجامعة فى نقد الاسلام كان مبنيا على اربعة امور ، تقدم الرد على ثلاثة منها ، وفى هذا المقال الرد على الرابع .

اقتباس أوربا من مدنية الاسلام

السبب الاول : الجمعيات

كان جلاد بين العلم والدين فى أوربا وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب ، منها ما اتخــذ السر حجابا له حتى يقــوى . ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة . وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه ، لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم ، حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البــلاد من سماء الأندلس ، وتبع اشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربى من الجانب الشرقى كما ذكرنا . وقد وجد هذان النوران استعدادا من النفوس للاستضاءة بهما فى السبيل التى تؤدى بهما الى المدنية التى كانا يحملانها . هذا الاستعداد كسبته الأنفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين فى استعمال سلطانهم ، واشــتدادهم فى استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال ، فأخذ الشــعور الانسانى يتلمس السبيل الى الخلاص ، واذ لاح له هذان النوران اتخذهما له هــداية ، واستقبلهما بوجهه . وكان بعــد ذلك ما كان من تأثر الدين لأهل العلم واحــراقهم بالنيران ، ونفيهم من الأوطــان ، ومقــاومة رؤســاء الدين للحكومات ولأهل الأفكار المستقلة ، فى أدنى الأشياء وأعلاها ، حتى انه عندما شرع ملوك فرنسا فى فرش شوارع باريس بالبلاط على الأسلوب الذى وجدوه فى مدينة قرطبة ، وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير فى تلك الشوارع ، أغضب ذلك قسس القديس أنطوان . ونادوا بأن خنــازير القديس لا بد أن تمر فى الشوارع على حريتهــا الأولى ، وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع

فى أعناقها أجراس . وقالوا : ان الملك فيليب الثامن مات بسقطة عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس فى عنقه .

لقائل أن يقول : ان القسس فى ذلك الزمان كان يسكنهم أن يمتنعوا من وضع الأجراس فى أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحا عظيما مع العلم (أو الصناعة) .

ويسهل على أن أوافقه على أن مثل هـذا الضرب من التسامح فى أجراس الخنازير كان يظهر من حين الى حين ، الا أنه فيما أظن لا يكفى فى تشييد هذه المدنية التى يفتخر بها الأوربيون اليـوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك .

السبب الثانى : الضغط الدينى

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغـيرة فى قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة ، فعظم أمرهم واكتشفوا كثيرا من الحقائق التى نفعت العامة ونبهت العقول للأخذ بما يهتدون اليه ، وصـارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سـجالا ، الى أن ظهر دعاة الاصـلاح الدينى « البروتستانت » فانضم دعاة العلم اليهم ظنا منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين فى سبيل العلم . وكان منهم « ايراسم » الشهير ، فلما انتصر طلاب الاصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الأفكار التى تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم فانفصل « ايراسم » ومن معه من حماة الحرية واستقلال الارادة الشخصية ، وترك المصلحين يتفرقون شيعا ويقتل بعضهم بعضا ، وقال : ما كنت أظن أن دعاة الاصـلاح يكونون كذلك أعداء العلم .

هذه الطوائف التى تفرقت عقائدها فى الاصلاح لم تنتظر الا أن تأمن من عدوها العام ، وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، فلما أمنتها أخذ بعضها يصـول على بعض ، واشتعلت نيران الحروب بينهم . قال أحد

أفاضل مؤرخيهم : « وكلما ارتفعت طائفة منهم الى عرش القوة ، لوثت يديها بالجرائم فى العمل لافناء البقية ، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ، ووجدت من توالى حوادث الانتقام وظهور مضاره فى كل طائفة أن الأفضل لكل طائفة أن تمنح الأخرى من الحرية ما لا تستغنى عنه واحدة منهما ، والعلم كان يعمل عمله فى كشف الحقائق وترقية الآداب ، وكان من أقوى المنبهات الى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الأشخاص ، من أية طائفة كانت ، من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم : أصل التسامح والرضا بمجاورة المخالف فى الرأى : نشأ من القهر والقسوة التى كانت كل طائفة تعامل بها الأخرى » انتهى كلام المؤرخ بالمعنى .

السبب الثالث : الثورة

ولا حاجة بى الى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم ، وانما أنبه القارىء الى الاعتبار بما تقدم من القول ، وبما يمكنه أن يقف عليه فى كتب القوم ، ليعلم أن الدين المسيحى فى أوربا لم يحتمل العلم فضلا وكرما ، وانما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعا ، ولو شاء ألا يحتمل لم يستطع الى ذلك سبيلا .

السبب الرابع : ترك المسيحية

رؤساء الدين المسيحى رجال ذوو عزيمة واقدام وغيرة على دينهم ، قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديان ، وهم من غلوهم فى الدين واشتدادهم فى استعمال سلطانهم على النفوس ، كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم ، وهم أشد الناس حرصا على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ، ولم يزدهم العلم الجديد الا وسائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه ، ولم تفتر لهم همة فى نشره وتزيينه للقلوب ، ومع

ذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامة من الشعوب فى تخاذل عنه . والأمة الفرنسية — التى كانت تدعى بنت الكنيسة — أصبحت من أشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين فى تعاليمهم واجتماعهم : كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة ، وطلاب اللاهوت يعدون بالألوف ، كل ذلك وكثير من الدول يرى من مزاياها حماية الدين المسيحى فى أقطار الأرض .

قال أحد رؤساء البروتستانت — فى خطبة من خطبه التى ألقاها فى بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ ، بعد كلام له فى أن المسيحية رومانية أو بروتستانتية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية — ما نصه مترجما : « اذا كان الدين المسيحى ليس شيئا سوى الكثلكة المحتاجة الى الاصلاح (المذهب الرومانى) أو الكثلكة التى دخلها الاصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتى) فالقرن الموفى للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحيا أبدا » .

وقد جاء فى كلام هذا الخطيب ما يصرح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها ، فان وفق للنجاح فى سعيه زال الخلاف — ان شاء الله — بين الدين والعلم ، بل بين المسيحية والاسلام .

عود الى سماحة الاسلام

آخذ بيد القارىء الآن ، وأرجع به الى ما مضى من الزمان ، وأقف به وقفة بين يدى خلفاء بنى أمية والأئمة من بنى العباس ووزرائهم — والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم ، والأدباء والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكل مقبل على عمله ، فاذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده فى يده ، يصافح الفقيه

المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضى والحكيم ، وكل يرى فى صاحبه عونا على ما يشتغل هو به — وهكذا أدخل به بيتا من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء فى ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون ، والامام البخارى حافظ السنة بين يدى عمران بن حطان الخارجى يأخذ عنه الحديث ، وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل : « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الأنبياء ربته ، ان قام بأمر قعد به ، وان قعد بأمر قام به ، وان أمر بشىء كان ألزم الناس له ، وان نهى عن شىء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه » .

بل أرفع بصرى فأجد الامام أبا حنيفة أمام الامام زيد بن على (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ، ولا يجد أحدهم من الآخر الا ما يجد صاحب الرأى فى حادثة ممن تنازعه فيه اجتهادا فى بيان المصلحة ، وهما من أهل بيت واحد — أمر به بين تلك الصفوف التى كانت تختلف وجهتها فى الطلب وغايتها واحدة وهى العلم ، فى بعض الأحاديث .

الخلفاء أئمة فى الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين فى قوته والعقيدة فى أوج سلطانها ، وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون فى أكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر ، لا فرق فى ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهنالك يشير القارىء المنصف الى أولئك المسلمين ، وأنصار ذلك الدين ، ويقول : ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم فى حقيقته ، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم ، ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية ، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية فى

النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقـل والقلب كما يقولون) .

يرى القارىء انه لم يكن جلاد بين العلم والدين . وانما كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شيء من التخالف فى الآراء ، شأن الأحرار فى الأفكار الذين أطلقوا من غل التقييد ، وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجرى فيما بينهم اللمز والتنابز بالألقاب ، فلا يقول أحد منهم لآخر انه زنديق أو كافر أو مبتدع ، أو ما يشبه ذلك . ولا تتناول أحدا منهم يد بأذى ، الا اذا خرج عن نظام الجماعة ، وطلب الاخلال بأمن العامة ، فكان كالعضو المجذوم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله .

ملازمة العلم للدين
وعدوى التعصب فى المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ورمى زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ؟ .

أشرنا فيما سبق الى مبدأ هذا المرض ، ونقول الآن : ان ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف فى الدين يظهر بينهم ، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله — تلك الفتن التى كان يثيرها أعداء الدين فى الشرق وفى الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه — وتصدر للقول فى الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع فى الدين ما يحسن أحداثه لتعظيم شأنه تقليدا لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها . وأنشئوا ينسون ماضى الدين ومقالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأى من يرونه من المتصدرين المتعالمين ، وتولى شئون المسلمين جهالهم ، وقام بارشادهم فى الأغلب ضلالهم ، فى أثناء ذلك حدث الغلو فى الدين ، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لأدنى سبب ، وكلما ازدادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلوا فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهى لوازم الدين الاسلامى) فى جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجبا من الدين محظورا فيه .

لا أكاد أخطىء القارىء اذا زعم أن المسلم انما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه اذ كانوا يقولون :

هرتقه وتهرتق وهو هرتوقى : آو ما يماثل ذلك — أو زعم أن قد فشت فى المسلمين سرعة التفكير بطريق العــدوى من أهل الملل المتشددة . وان الذى سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الدينى عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم .

ان المســلمين لما كانوا علمــاء فى دينهم كانوا علماء الكون وائمة العالم ، ولما أصيبوا بمرض الجهل بدينهم انهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم فى مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك ؟ .. لا ، بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين ، وخدمة السنة والكتاب ، فقد حملت كتب الامام الغزالى الى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت السنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضــليله ، فجمعت تلك الكتب خصــوصا نسخ « احياء علوم الدين » ووضعت فى الشارع العام فى المدينة وأحرقت . قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين فى ابن تيمية — وهو أعلم الناس بالســنة وأشدهم غيرة على الدين — : أنه ضال مضل . وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملئون أفواههم بهذه الشتائم وعليهم اثمها واثم من يقفوهم بها الى يوم القيامة .

اهمال آثار السلف

أهمل المسلمون علوم دينهم ، والنظر فى أقوال سلفهم ، حتى انك لا تجد اليوم فى أيديهم كتابا من كتب أبى الحسن الأشعرى ولا أبى منصور الماتريدى ، و لاتكاد ترى مؤلفا من مؤلفات أبى بكــر الباقلانى أو أبى اسحق الاســفرايينى ، واذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمــة فى مكاتب المسلمين أعياك البحث ، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب .

كتب على القرآن تفاسير كثيرة فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده الى السادس . منها تفسير الطبرى : وتفسير أبى مسلم الأصفهانى ، وتفسير القرطبى ، وتفسير الجصاص،وتفسير الغزالى ، وتفسير أبى بكر ابن العربى وكثير غيرها ، وفيها من آراء أولئك الأئمة ووجوه استنباط الحكم والأحكام ما لا غنى لطالب علم الدين عنه ، فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها الا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعى أنها على دين ، وأن لها فيه سلفا ، أن تهجر آثار سلفها ، وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشا للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحى فى زمن من الأزمان ؟

ان حالة طلبة العلوم الدينية الاسلامية أصبحت مما يرثى له فى أكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرءون من كتب الكلام الا مختصرات مما كتب المتأخرون . يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها ، ولا يستطيع أن يتعلم البحث فى أدلتها ، وتصحيح مقدماتها ، وتمييز صحيحها من باطلها ، وانما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ ما فيها بالتسليم . فاذا ناظره مناظر فى بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله : هكذا قالوا . وان لم يكن القول متفقا عليه . بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذى اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذا يعى عنه ما يقول .

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية فى سورية والحجاز وتونس والجزائر ، وقل جدا فى المغرب الأقصى ، ولم يبق الاهتمام به الا فى بعض الصحارى ، وذلك اما لصعوبة طرق التعليم ، واقتضائها الزمن الطويل — وحاجات الناس مانعة لهم من افناء أعمارهم فى عمل لا يسد من حاجتهم — واما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة فى أوربا أو فى المدارس الأخرى وليس فيها من الدين شىء ، وان كان فيها شىء منه فهو مما لا يعد تعليما دينيا ينظر اليه — واما للفتور والخمود ،

اللذين نشآ عن التقليد والجمود . وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور الأعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الأحكام لأنكروه واستغربوه وعدوه بدعة فى الدين . وصح فيهم ما قال عمر الخيام فى بعض أشعاره الفارسية مخاطبا للنبى عليه الصلاة والسلام : « ان الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته » .

فهذا الصنف من المسلمين — وهو معظمهم — قد أنكر دينه الحق وعاداه ، ونقم على أهله القائمين بخدمته ، وانما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ، ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ، فاذا وقع من هذا الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله ، فهل يعد ذلك واقعا من دين الاسلام — دين محمد صلى الله عليه وسلم — دين القرآن — دين السنة الثابتة — دين الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من السلف الأولين ؟ .

متابعة العلم للاسلام ومباينته لسواه

الحق أقول — والحس يؤيدنى : ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم الا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم فى الصد عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل . وكانوا كلما توسعوا فى العلوم الدينية ، توسعوا فى العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، واما غيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجدوا فى المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجهمهم واكفهر وجهه للقائهم ، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش فى وجوههم . ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل ، والعقل لا يصح أن يكون له فى الدين عمل ، ولا أن يظهر منه فيه أثر ، والدين من وجدانات القلب ، ولا علاقة بين ما يجد القلب وما

يكسب العقل . فالفصل تام بين العقل والدين ، و لاسبيل الى الجمع بينهما : سامحهم الله فيما يسمونه تسامحا مع العلم ، وهم يصرحون بأنه عدوه الذى يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم .

هل عرفت السبب فى اضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول « اضطهاد » ولا أريد به ما كان عند الأمم المسيحية من الاشتداد فى ابادة أهله والتنكيل بهم ، واختراع ضروب التعذيب ، والتفنن فى صنع آلات الهلاك ، مع الأخذ بالشبهة ، والاكتفاء فى الاعدام بمجرد التهمة ، فان ذلك لم يقطع عند المسلمين لا أيام علمهم ، ولا فى أزمنة جهلهم ، ولكن أريد من الاضطهاد الاعراض عن العلم ، ورمى الألفاظ السخيفة فى وجوه أهله ، وقذفهم بشىء من الشتائم مع الابتعاد عنهم .

لا ريب أنك قد أيقنت بأن السبب فى هذا الذى يسميه الأديب اضطهادا — انما هو جهلهم بدينهم . فالدواء الذى ينجع فى شفائهم من هذا الداء لا يكون الا ردهم الى العلم بدينهم ، والتبصر فيه ، للوقوف على أسراره والوصول الى حقيقة ما يدعو اليه ، كأن الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم ، فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنس وحشة .

الدعاة فى الاسلام

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لأصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة فى أطراف بلاد المسلمين كثرتهم فى أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحى الى أن ظهرت قوة العلم فى أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك ؟ .. لا .. انما رأينا من الصادقين أفرادا يظهرون متفرقين فى عصور مختلفة ، ربما لا يجتمع أربعة منهم — فما يزيد — فى قرن واحد ، ويأخذون فى العمل لما وجهوا

اليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم ، فيحس الناس بهم ، فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى أن يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم ، قبل أن يبلغوا من قلب أحـد ما أرادوا من غـرس أفـكارهم ، فينطفىء النـور ، ويدلهم الديجور .

فهل يعد الأديب هذه الضربات من أيدى أرباب السياسة اضطهادا للعلم لأجل حماية الدين ؟ أنزه كل أديب عن أن يظن ذلك ، وانما هى صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة ، فلا تعد حجة على الدين فى نظر المنصف .

المقلد دون المقلد

ربما يقول القائل : ان كان المسلمون قد أخذوا الجمود فى التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعـداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقـل والدين وما أشـبه ذلك مما هم فيه ، وورثوه عن الأمم السـابقة عليهم خصوصا أقرب الملل اليهم . فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين فى الحرص على نشر دينهم ، والتوسع فى علومه مذيلا بما أخـذوه عنهم ، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون اخوانهم قسمين : قسما ينقطع الى الآخرة فى الأديار والصوامع ، وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الأول ، ويحمى نفسه ويحميهم من العدوان ؟ .. وما لك ترى المسلمين خملوا وارتخت أعصابهم ، وسئموا النظر فى علوم دينهم كما ذكرت ، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ؟ .. وطرحوا أنفسهم فى تيار من القدر كما يقولون ، يجرى بهم الى حيث لا يعلمون ؟ .. ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ، وأشدهم لهفا على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم فى شىء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض ؟

فأقول له : انك قد نسيت أن المقلد يكون دائما أحط حالا وأخس منزلة من المقلد .. فالمقلد انما ينظر من عمل المقلد الى ظاهره ولا يدرى سره ولا ما بنى عليه . فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الأمر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون فى شر مما كان عليه مقلدوهم ، لا سيما انهم قد خلطوا فى التقليد وأضافوا الى دينهم ما لا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا فى مثل حال المتخبط الذى تنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهى أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستلقى الى أن يستريح ، فيهنض الى العمل على هدى أو يموت .

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر الى الدنيا والأخرى تنظر الى الآخرة ، فلما طفقوا يقلدون أغمضوا احدى العينين ، وأقذوا الأخرى بما هو أجنبى عنهم فقدوا المطلبين ، ولن يجدوهما الا بفتح ما أغمضوا ، وتطهير ما أقذوا .

الاصلاح والمصلحون

للقائل أن يقول : كيف تدعى أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى فى جو مصر وسورية وغيرهما من البلاد فى هذه الأيام ؟ .. كل يقول : دينى ملتى ، اسلام مسلمون ، قرآن سنة ، مجد الاسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة كتب جديدة ، وما يشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين الى العلم أو المنبهين الى الأخذ بأصول الدين الاسلامى كثيرون ، ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين الا آذانا صما وأعينا عميا ، وصدا عما يدعو اليه هؤلاء ؟ .

ويمكننى أن أقول له : ان الصادق فى هؤلاء ليس بكثير عده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد أكثرهم الا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه

الأسماء وقلما يدرسون شيئا من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وانما يلقفه بعضهم عن بعض ظواهر كالزبد لا تمكث فى الأرض . وأما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعلمون ، خصوصا فى أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ولا سيما فى بلاد الهند وبين مسلمى روسيا . ولكن الاصلاح ليس ريحا تهب فتمسح الأرض من الشرق الى الغرب فى وقت قريب فانتظر

قد يقول القائل : لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الأوربيين فيما مضى ، حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم اليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التى طال أمدها عليهم ؟ .. ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ .. أليس ذلك سبيلا لمؤاخذة الاسلام وحجة عليه ؟ .

وأقول له : ان حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم بل المنتظر أن يكون أتعس ، وقد أقامت المسيحية ما يزيد على ألف سنة قبل أن يظهر فيها العلم ، أو تنشأ الحرية الشخصية ، أو تسرى فيها الحركة العلمية ، الى ما فيه صلاح الجمعية الانسانية ، مع توالى المنبهات ، وتواصل الصدمات اثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة ، وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم الا أقل من ثمانمائة سنة ، فلم يمض عليهم وهم فى بدعهم الجديد ، ذلك الزمن الذى قد يكون عمرا لمثل هذه الحالة ، ثم تقضى نحبها فى آخره . وما أظن أن يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ما هم أهل له .

الفرق بين التعصبين

وعلى كل حال لا يجوز فى شريعة الانصاف أن يذكر المسلمون فى جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلا عن أن

يقال ان المسلمين أشد افراطا فيه . والشاهد يدلنا على أنه قد يكون للمسلمين فى التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين انما هو أعمال وضربات فى المعاملات ، وما على طالب الحقيقة الا أن يسيح بفكره فى مثل المستعمرات الهولاندية فى الشرق . ومملكة الترنسفال قبل سقوطها ، وبلاد الناتال فى الجنوب ، ثم يرجع الى بعض بلاد الروسيا فى الشمال من قبل عشرين سنة ، ثم يرجع الى الجزائر وما يليها فى جهة الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية ، وكيف يبلغ التعصب من أهله حدا تنظر اليهم فيه الانسانية شزرا ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذرا .

ما على الباحث الا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم فى حيرة من أمرهم مع المسلمين ، يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لا تجد السبيل اليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والافراط فى القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم ، وأرباب الأقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ، ويأبى الله أن يعثرهم على ما يبحثون عنه ، لأنهم يطلبون الجمع بين الضدين فى موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم (١) .

---

(١) آخر ما استقر عليه رأيهم وشرعت دولتهم فى تنفيذه هو اخراج المسلمين من دينهم ولغتهم (العربية) بكل ما يمكن من وسائل العلم والتعليم والاكراه والاجبار وعدم تمكينهم مع ذلك من تعلم العلوم الطبيعية والاجتماعية والقانونية لئلا يطالبوا بالاستقلال الوطنى أو المالى ، وقد حدث فى الماضى أن أكرهوا سلطان المغرب على توقيع مرسوم يخول الحكومة الفرنسية الحامية له تنفيذ ذلك فى شعب البربر ، فأنشأت لهم قانونا بربريا بعيدا عن الشريعة الاسلامية بعد الكفر عن الايمان فى الأحكام الزوجية والارث وغير ذلك ، ومدارس تعلمهم بها دين النصرانية باللغة الفرنسية ، واللغة البربرية بالحروف اللاتينية ، وتحرم عليهم تعلم اللغة العربية والديانة الاسلامية ، حتى اذا ما تم لها اخراج البربر من الاسلام أكرهت العرب على ذلك ومن أبطأ تطرده من البلاد . وأما ايطاليه الكاثوليكية الموالية للبابا فقد حاولت حين احتلالها ليبيا استئصال المسلمين من قطر طرابلس الغرب وبرقة وجعل بقايا أطفالهم ايطاليين كاثوليكيين بالقوة القاهرة تنكيلا وتقتيلا ! ! (والله أشد بأسا وأشد تنكيلا) وفى الجزائر وتونس فرضت اللغة الفرنسية على الأهالى ، وحرمت التعليم باللغة العربية ، وحاربت المدارس الاهلية الاسلامية ، واضطهدت علماء المسلمين حتى هاجر الكثيرون من بلادهم الى مصر وسورية .

فهرس الكتاب

(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)

